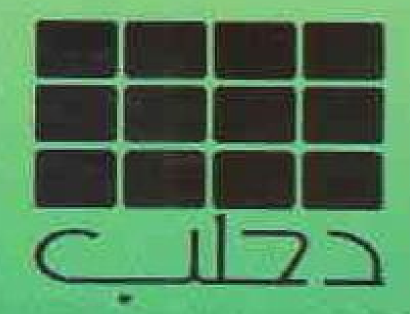
زهير إحدّادن

شخصيّات ومواقف تاريخيّة



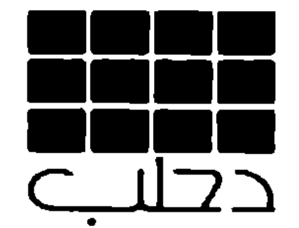
الأكاديمية الجزائرية للوثائق والمصادر التاريخية



18 شارع دوزي حيدرة الجزائر
الهاتف والفاكس : 021 69 40 06
البريد الإلكتروني : editionsdahlab@yahoo.fr
الإيداع القانوني : 2102-2167
ردمك : 978-9961-61-260-6

زهير إحدادن

شخصيات ومواقف تاريخية



تقديم

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات والمحاضرات كتبتها في عـدة مناسبات فيما بين 1975 و 2001 ويجمع بينها موضوع واحد هو تـاريخ الجزائر القديم والحديث.

وقد رأيت نشرها مساهمة مني في كتابة تاريخ بلادنا وسميـت الكتـاب "شخصيات ومواقف تاريخية" وقسمته إلى بابين كبيرين، الأوّل يتناول بعـض الشخصيات التاريخية الجزائرية في الفترة الإسلامية من تاريخنا، وإنني لم أهمـل ولم أنس الشخصيات الأخرى التي عرفتها الجزائر ولكنني فقـط لم أتناولهـا بالدراسة لأنّ الظروف لم تلزمني ولأنّ هذا الإنتاج وليد الظروف كما سيطلع على ذلك القارئ الكريم "فالظروف" لم تطلب مني أن أتعرض مثلا لماسينيسا أو الأمير عبد القادر فلم أنتج في الموضوع، وهذا ليس معناه أنّ الشخصيـات التي لا وجود لها في هذا الكتاب غير هامة أو لا تستحق أن أهتم بها، بالعكس

وسيأتي حينها إن شاء الله، ولعل الأهم في كل هذا أنّ الفترة الإسلامية من تاريخنا تعرضت لعدة تشويهات من عدة جهات وهناك من يريد أن يتنكر لها ويجهلها، وحتى في المدارس فإنّ تدريسها يشوبه كثير من الغموض، والتأويلات التي لا مبرر لها ولهذا رأيت أن أعتني بها أكثر وأن أحاول أن أقدم للقارئ الأحداث التي وقعت بها بكل وضوح.

أمّا الباب الثاني من هذا الكتاب فهو يتناول الفترة الأخيرة من تاريخنا المعاصر واخترت بعض الأحداث التي وقعت بعد 1830 أي بعد احتلال الاستعمار الفرنسي لبلادنا وهذا الاختيار هو كذلك ظرفي لأنّه يشمل المحاضرات التي ألقيتها في بعض المناسبات كما ذكرت سابقا، فاختياري لهذه الأحداث ليس له معنى علمي أو منهجي، وقد تكون هناك أحداث أخرى أكثر أهمية مثل حادثة المروحة مع الداي حسين أو مواقف أحمد باي أو الأمير خالد أو غير ذلك ولكن الأحداث التي ذكرتها في هذا الكتاب : المقراني والمملكة العربية، وتأسيس نجم شمال إفريقيا وحوادث 8 ماي 1945، هي من الأحداث المحورية التي تؤثر على التاريخ وتصبح بذلك منعرجا كبيرا في المسار التاريخي ولعلي بذكري لها قد أثريت دراستها وأفدت القارئ الكريم.

ولقد بدأت هذا الكتاب بباب تمهيدي سميته "التاريخ والإيديولوجية" تعرضت فيه لبعض المشاكل أو بالأحرى لبعض الاتهامات الموجهة لتاريخ

الجزائر والتي تجعل شبابنا في ريبة من تاريخهم غير مقتنعين بانتمائهم الحضاري والتاريخي، وقد حاولت أن أوضح بعض المفاهيم مثل الاحتلال والمقاومة وأن أقدّم الدليل والبرهان الذي يجعلنا نعتز بتاريخنا ونعيد له الاعتبار والتقدير الذي يستحقه.

إنّ العمق التاريخي الذي انبثقت منه الجزائر هو عمق زاخـــر بالأحـــداث الحضارية الأصيلة التي تجعل تاريخنا في أعلى مقام بين الحضـــارات العالميـــة، وأرجو أن يقتنع الباحثون بهذا وأن ينتهجوا هذا المنهج وأن ينتجوا ما يزيـــل هذه الشكوك و هذا التشكك الممقوت إنّهم قادرون على ذلك.

الباب التمهيدي

التاريخ والأيديولوجية

التاريخ والأيديولوجية

إنّ عنوان هذا العرض الوجيز يشير بالدرجة الأولى إلى العلاقة الموجودة بين كتابة التاريخ والسلطة السياسية القائمة ونوعية هذه العلاقة تبين في كثير من الأحيان أنّ السلطة السياسية تحاول دائما أن تبرر وجودها بحجج تاريخية مما يؤدي بها إلى التلاعب بالأحداث التاريخية وتحويرها أحيانا وتزويرها مرارا تجعلها تتلاءم مع مواقفها السّلطوية وتشرحها وتعززها.

وشأنها في هذا شأن الصحافة بالنسبة للأحداث التي نعيشها يوميا والتشابه كامل بين الحالتين، فالصحافة اليوم تقوم هي كذلك بنفس التلاعب والتحوير والتزوير والفرق بين الصحافة الحالية وكتابة التاريخ الخاضعة للإيديولوجية هو أنّ الصحافة تعالج الأحداث الآنية في حين أنّ التاريخ يعالج الأحداث الماضية وفي كلتا الحالتين نجد تدخل السلطة السياسية القائمة واضحا، فبالنسبة للتاريخ فإنّ الأمثلة كثيرة نكتفي بذكر ثلاثة منها **معبرة عن التدخل الأيديولوجي:** مثل من الثورة وآخر من الفترة الاستعمارية الفرنسية وثالث من الفترة الاحتلالية الرومانية.

1 – **مثل من الثورة** . إنّ السلطة السياسية التي استقرت في الجزائر بعد الأحداث التي وقعت في 1962 جعلت السلطة تؤكد على أنّها تستمد شرعيتها من الثورة (1954 - 1962) وبالتالي سمحت لنفسها بأن تعطي قراءة خاصة لبعض الأحداث التي وقعت أثناء الثورة لتبرر أو لتعزز موقفها، وعلى سبيل المثال فإننا وجدناها تقف موقفا إيديولوجيا وبعيدا عن الحقيقة التاريخية في ثلاثة ميادين على أقل تقدير :

- أهملت مدة طويلة ذكر أسماء قادة الثورة الحقيقيين وتسامحت في أن يكتب في الكتب المدرسية بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قامت بالتحضير للثورة وفي نفس الكتب همش دور المنظمة الخاصة المنبثقة من حزب الشعب الجزائري.

- لم تشرح العلاقة الهشة التي ربطت جبهة التحرير الوطني ببعض الأنظمة العربية وبالأخص نظام عبد الناصر في مصر ونظام بورقيبة في تونس لما وراء هذه العلاقة من إيديولوجية لا تساعد ربما السلطة القائمة.

- ليس هناك شرح ولا تحليل للظروف التي مات فيها بعض من قادة الثورة لما في ذلك من الكشف لبعض المواقف التي لا تساعد ظرفيا السلطة السياسية القائمة.

2 - **في الفترة الاستعمارية الفرنسية** .نادت السلطة السياسية القائمة بفرنسة الجزائر وتسارعت إلى كتابة تاريخ الجزائر وتاريخ شمال إفريقيا بما يساعدها على تحقيق هذا الهدف، فبالنسبة للجزائر فإنّها أنكرت وجود أمة جزائرية ثم أعطت صورة مشوهة لسكان شمال إفريقيا فوصفتهم بأنّهم رحل ليس لهم استقرار وأنّهم خليط من الأجناس الآخرين وكأنّها توحي بأنّ هذه الأرض ليس لها سكان أصليون هم أحق بها من غيرهم لتبرر من وراء ذلك وجودها فوق هذه الأرض واحتلالها لها.

ثم نجد بعد ذلك هذه السلطات الاستعمارية ومن يعمل معها تنكر وجود تاريخ قائم في حد ذاته لسكان هذه الناحية، بل فهي تقول وتؤكد أنّ تاريخ شمال إفريقيا هو امتداد لتاريخ الأمم التي احتلته واستعمرت أرضه وبالتالي فهي تُقسم تاريخ هذه الناحيّة حسب الفترات الاحتلالية فتقول الفترة الفينيقية ثم الفترة الرومانية ثم الوندالية والبيزانطية الخ ... لتبرر بذلك وجود الفترة الفرنسية، ما دام الشعب ليس له وجود قار وليس له تاريخ ويحتاج دائما إلى الظروف التي تفرض عليه التبعية.

3 - **مثل من الفترة الرومانية** .إنّ المؤرخين الرومانيين يعتبرون المرجع الوحيد الذي يشير إلى فترات قصيرة من تاريخنا القديم ولكن هذه الإشارة وردت في مضمون تاريخي وإيديولوجي يعطي الفضل وكل الفضل -وهذا طبيعي- لدور روما وبالتالي فهو يشوه تاريخ من وقف ضد روما

ويشحن بالإيديولوجيا الرومانية كل تحالف وقع بين روما وغيرها من الأمم ولهذا ظهرت هذه الكتابات التاريخية تمجيدا خالصا لتاريخ روما وتقزيما صريحا لتاريخ الأمم التي احتكت بها.

والمؤرخون الرومانيون عندما يتكلمون عن نوميديا يؤرخون لروما ولوجودها في نوميديا ولا يهمهم من نوميديا إلاّ ما يشرح ويعطي ضوءا جديدا لجانب من تاريخ روما، فالمؤرخون الرومانيون مثل المؤرخين الفرنسيين يخضعون للإيديولوجية التي تمجد بلادهم على حساب غيرهم وحينئذ يبقى من العبث أن نحصر تاريخنا القديم فيما كتبه **سالوست وتيتليف** وأن نتبنى ما كتبه المؤرخون الرومانيون حول الفترة الاحتلالية الرومانية.

إنّ الأمثلة الثلاثة السابقة تكفي للدلالة على ما أشرت إليه من تدخل الإيديولوجية في كتابة تاريخ بلادنا وفي تشويه فترات واسعة من مراحله ونظرا لهذا التدخل فإنّ كثيرا من الجزائريين المثقفين الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية يعتبرون الجزائر وشمال إفريقيا كلية "يتيمة التاريخ" ليس لها تاريخ يذكر وما يذكر من هذا التاريخ فهو وصمة يعبر باستمرار عن الاحتلال الأجنبي وعن التبعية السياسية، وبمعنى آخر عن عدم الوجود وانطلاقا من هذا فإنّ الكثير من هؤلاء المثقفين يقومون بحملات للبحث عن هويتهم مع اليقين عندهم أنّها غير موجودة وأنّهم لن يجدوها أبدا وربما القصد منهم هو نشر التشكك الذي يخامرهم وهو أمر يخلف البلبلة ويجعل المشكل قائما باستمرار

ولقد شعر المؤرخ شريف ساحلي بهذا الخطر فقام بحملة معاكسة ونادى بتطهير التاريخ، وهذا النداء قائم ولابد من إجابته وللقيام بحرب تحريرية تعيد لتاريخنا سيادته الكاملة تملأ قلوب أبنائنا بالاعتزاز والافتخار بهذا التاريخ التليد المجيد.

وحتى نتفادى هذا الخطر وإسهاما في تطهير التاريخ بودّي أن أشير إلى ثلاث نقاط أراها أساسية في كتابة تاريخنا وهي: أ) تحديد الفترات التاريخية لاحتلال شمال إفريقيا ب) مفهوم المقاومة في تاريخنا جـ) أصالة الفترة الإسلامية من تاريخنا، وعندما أجمع هذه النقاط الثلاثة فإنّه تتجلى لنا ظاهرة قوية ما زلنا نشعر بها وهي أصالة النظام السياسي الذي نمى وترعرع فوق هذه الناحية من العالم وهو ما سأحاول أن أشرحه باختصار فيما يلي :

انطلاقا من ملاحظتي السابقة حول طابع التبعية لتاريخنا حسب الإيديولوجية الاستعمارية فإنّ المؤرخين يقسمون تاريخنا إلى فترات احتلالية "الفينيقيون، الرومان، الوندال، البيزنطيون، العرب، الترك، الفرنسيون"، والواقع أنّ هذا الموضوع قد طرح في كثير من المناقشات والمحاضرات ولكن هذا الطرح كان ينحصر في الغالب على قضية التسميات، يعني الشكليات ولا يتطرق إلى جوهر الموضوع، فالجدال يدور حول تسمية العهد التركي مثلا أو العهد الروماني ولكن بعد ذلك يبقى المشكل واردا وهو وجود هذا الاحتلال وللتغطية نتجنب كلمة الاحتلال ونستبدلها بكلمة المقاومة وهو ما

يثبت فكرة الاحتلال من جهة ويوحي من جهة أخرى أنّ النظام السياسي السائد في الجزائر هو نظام المقاومة، نعم إنّ تاريخ الجزائر مليء بالمقاومة وهذا نفتخر به ونعتز به ولابد من الإلحاح عليه ولكن نقاوم لماذا ؟ ولأي شيء ؟ إننا نقاوم لنحافظ على كياننا وعلى النظام الذي نعيش فيه ولأنّ هذا النظام جزء من حياتنا ألفناه ولازمناه عبر القرون وكيف نألفه لو لم يتميز بالديمومة والاستقرار!

ما معنى هذا ؟ ولنتأمل لحظة تاريخ الجزائر انطلاقا من عمق التاريخ ! متى يبتدأ تاريخ هذه المنطقة ؟

من العبث أن نرجع إلى زمان سيدنا آدم لأننا لا نعرف في أي أرض كان استقراره! لكننا نعلم حسب البحوث التاريخية والأثرية العصرية أنّ منطقتنا هذه كانت محط حضارة قديمة جدا يرجع تاريخها إلى آلاف السنين، ولكن في هذه العجالة نكتفي فقط بالوقوف على التاريخ المكتوب الذي يذكره المؤرخون في كتاباتهم ويبقى المجال مفتوحا لأنّ في هذا الميدان ليست هناك دراسات شاملة ووافية والاكتشافات لم تتم بعد وليست هناك إلاّ فرضيات. ولهذا فإننا نكتفي بما هو محقق وهذا التحقق التاريخي يكشف لنا أن منطقتنا هذه دخلت في التاريخ الحضاري عدة قرون قبل ظهور مدينة قرطاجنة، يعني في أقل تقدير بين "1500 و 1800" سنة قبل الميلاد، يعني مع الحضارة الفرعونية، وهذا معناه أنّه انطلاقا من هذه الفترة إلى يومنا لم ينقطع النشاط

الحضاري في منطقتنا والعملية الحسابية تعطي لنا فترة تاريخية تشمل أكثر من 4000 سنة على اقل تقدير، يعني أنّ التجارب الحضارية التي عرفتها منطقتنا غنية وثرية ومتنوعة من جهة ومتكاملة من جهة أخرى، ولا نريد أن ندخل في التفاصيل[1] والمهم بالنسبة لهذا العرض هو أن نتبين أصالة هذه الحضارة وأن نبرز دور سكان هذه المنطقة في تكوين هذه الحضارة، وهذا يطرح بلا شك مشكل التدخل الأجنبي كما أشرت إليه في البداية، فعلينا إذا أن نحدد بالضبط الاحتلال الأجنبي حسب روايات المؤرخين. وهنا أبدي ببعض الملاحظات :

I – فالاحتلال الأجنبي نوعان :

1 – الاحتلال الكلي لهذه المنطقة وهو قليل ويشمل في الحقيقة فترة من الاحتلال الروماني تغطي بالتقريب قرنين ونصف من الزمان والاحتلال الفرنسي الذي يغطي قرنا من الزمان بالتقريب[2]. فجملة الاحتلال الكلي إذا لا تتجاوز أكثر من ثلاثة قرون ونصف أو أربعة قرون على أكثر تقدير.

2 – الاحتلال الجزئي أو النسبي لمنطقة المغرب الذي يشمل :

– وجود قرطاجنة في الشمال الشرقي من المغرب، ولقد دام هذا الإحتلال حوالي أربعة قرون، وفي هذه الفترة ظهرت في المناطق الأخرى

الواسعة من المغرب دول أصلية وحضارة قوية نعرف عنها أنّها كانت يقودها رجال عظماء مثل ماسينيسا ويوغرطا.

- مرور الوندال الذي لم يكن لهم استمرار وتدخل فترتهم في إطار المقاومة وهذه الفترة شيء لا يكاد يذكر، ثم جاء الاحتلال البيزنطي الذي هو كذلك استقر بالشمال الشرقي من المنطقة ودام فترة تقرب من القرن والنصف واقترن في الجهات الآخرى من المنطقة بظهور دول أصلية مثل مملكة مغراوة في الجنوب الغربي من الجزائر والتي استمرت حتى بداية العهد الإسلامي[3]

II - **والملاحظة الثانية** : هي أنّ الفترة الإسلامية سواء قبل العهد العثماني أو بعده تعتبر فترة أصلية لأنّ الحكم السياسي فيها كان يخضع للعقيدة الإسلامية التي لا تفرق بين المسلمين كيفما كان جنسهم، وهكذا نجد مثلا دولتي بني رستم والأدارسة مبنيتين على هذه القاعدة، فالحكم كان لمن يمثل العقيدة حتى لو لم يكن من أصل محلي ولكن قوام هذا الحكم وعمدته وقوته من السكان الأصليين المنتمين لنفس العقيدة، وكذلك الشأن بالنسبة للعثمانيين، وهذا النظام السياسي هو نوع من مميزات الفترة الإسلامية التي هي في الحقيقة من أوّلها إلى يومنا نظام سياسي أصيل هو منا ونحن له.

ولنرجع الآن إلى العملية الحسابية التي تفرض علينا أن نأخذ بالاعتبار فقط فترة الاحتلال الكلي التي فقدنا فيها حقيقة استقلالنا كله وأصبحنا نخضع فيها للأجنبي وبما أنّ هذه الفترة تغطي فقط أربعة قرون فإنّ الفترة التي عشنا فيها أحرارا أقوياء في نظام سياسي أصيل نابع من حضارة عريقة، هذه الفترة تغطي أكثر من خمسة وثلاثين قرنا من تاريخنا وهي سبعة أضعاف من فترة الاحتلال، فالمقارنة بين الفترتين غير متساوية ! فكيف إذا يرجح المؤرخون الفترة القصيرة على الفترة الطويلة ؟ مع العلم أنّه في الفترة القصيرة هذه التي أشرنا إليها تظهر المقاومة وفيها تحتك بالفعل بالحضارات الأجنبية ولكن تبقى الحضارة الأصلية محافظة على مميزاتها الأساسية مثل ما نراه اليوم بعد الاحتلال الفرنسي فإنّ الحضارة الأصلية الجزائرية لم تندثر بعد بل انتعشت من جديد واسترجعت حيويتها.

إنّ قضية الاحتلال الأجنبي ظاهرة عامة وليست هناك أمة إلاّ وقد تعرضت لهذا النوع من الاحتلال، ولكن الغريب في الأمر أن تطغى فترة الاحتلال وتبرز على حساب فترات السيادة الوطنية، إنني أعتقد أنّه من واجبنا أن لا نكتفي بالحديث عن المقاومة الجزائرية ولكن نعمل ونجتهد على تسليط الضوء من عدة جوانب على فترات السيادة التي هي الأهم والأساس الذي ينبني عليه تاريخنا وتتميز به حضارتنا، و إنني أريد أن أشير إلى أنّ القرن الثامن الميلادي الذي يوافق القرن الثاني للهجرة عرف مملكة جزائرية

قليلا ما يشير إليها المؤرخون وهي مملكة مغوارة التي كانت في الجنوب الغربي من الجزائر وكانت تمتد من واد ملوية إلى قرب بسكرة ولعل مقرها المركزي كان بنواحي تسمسيلت وفراندة الحالية، وهي المملكة التي عاصرت الاحتلال البيزنطي الذي كان موجودا في منطقة تونس الحالية وقاومتها وصدتها عن احتلال أراضي أخرى. ويذكر ابن خلدون أنّ ملكها صولات ابن وزمار اتصل بالخليفة عثمان وأسلم وأقره عثمان على الملك ورجع إلى أهله ونشر الإسلام فيهم، والغرابة أننا نتحدث عن الاحتلال البيزنطي ولا نتحدث عن مملكة مغراوة.

وانطلاقا من هذه النقطة التي شرحتها فإنّ الميزة الأساسية في الفترة الإسلامية من تاريخنا هي الجهد المبذول من صانعي هذا التاريخ للحفاظ على السيادة "الوطنية" في ظل تعاليم الدين الإسلامي ومع هذا البعد الإسلامي وهذا ما نلمسه عند دراستنا للأحقاب المختلفة التي مرّ عليها هذا التاريخ. إذا أخذنا مثلا دولة بني رستم[4] أو دولة الأدارسة[5] نجد فيهما معا الطابع القومي والطابع الإسلامي مع المحاولة الأولى للتوفيق بينهما، وهو نظام سياسي أصيل قاعدته عصبية محلية هي قوته المكلفة بالحفاظ عليه ومظهره الملك المشخص في الخليفة أو الإمام الذي يعبر عن العقيدة الدينية سواء كانت شيعة أو سنة أو من الخوارج، وفي هذا النوع من النظام تحتضن دائما العصبية المحلية إماما أجنبيا عنها وتلتحم معه لتكون ملكا كما يشرح ذلك

المؤرخ ابن خلدون وهذه الميزة وجدناها كذلك عند قبيلة كتامة عندما التحمت مع الشيعي عبيد الله ولعل هذا الموقف يظهر خاصة في طور من المسيرة التاريخية يطغى عليها نوع من الضعف أو التفكك العصبي ولعل هذا ما يفسر الفترة العثمانية من تاريخنا إذ فيها يظهر من جديد هذا النوع من النظام السياسي مع قلب في أوضاعه وهو أنّ القوة كانت بأيدي العثمانيين وكان استعمالها للحفاظ على الكيان الإسلامي المهدد من طرف الأجنبي من وراء البحر، فالتشابه تام في النظام السياسي لهذه الفترة التي ذكرتها الآن والتي تكوّنت فيها العصبيات المختلفة متفككة نوعا ما ولكن عندما تكون العصبيات المختلفة ملتحمة ومتماسكة، كيفما كان العامل المحرك لها فإنّ النظام السياسي يكون متكاملا منسجما بين الوازع والسيادة الوطنية أو المحلية وهذا ما نجده في دول صنهاجة ومصمودة وزناتة ولعلّ أكثر مثال دلالة هو دولة الموحدين التي اشتملت جميع المغرب وأعطت للحضارة نموذجا فريدا في نوعه من النظام السياسي المحكم.

وهذه هي مساهمتي المتواضعة المختصرة في تطهير تاريخنا والمجال يبقى واسعا أمام المؤرخين الجزائريين وأعتقد أنّ الشرط الأساسي المطلوب مسبقا لكتابة هذا التاريخ هو الاقتناع أوّلا بوجوده مثل وجود تاريخ غيره من الأمم وثانيا بعظمة هذا التاريخ بدون نقصان ولا زيادة وثالثا بالضرورة الملحة لتطهيره وكتابته.

الهوامش :

1 - جميع المؤرخين (الفرنسيين والعرب) متفقون على أنّ دولة قرطاجنة بدأت سنة 810 قبل الميلاد ولكن قبل وصولها كانت هذه المنطقة عامرة وفيها حضارة يرجع تاريخها إلى عدّة آلاف من السنين قبل الميلاد (راجع كامبس).

2 - الاحتلال الفرنسي لمنطقة الجزائر لم يكن شاملا سنة 1830 حتى نبتدأ هذه الظاهرة من هذا التاريخ بل استمرت السيادة الوطنية قائمة في عدة مناطق من الجزائر حتى 1880 و لم يبدأ الاحتلال الكلي إلاّ من هذه السنة وبدأت عندئذ المقاومة.

3 - يقول ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه : "وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام واقره لهم وحسن إسلامهم".

4 - ابن رستم فارسي الأصل وخارجي المذهب وقد فر من المشرق والتحق بقبائل البربر التي اعتنقت المذهب الخارجي.

5 - مؤسس دولة الأدارسة هو إدريس ولقد نجا بنفسه من الصراع الحاد والاقتتال الذي وقع بين الشيعة والدولة الأموية والدولة العباسية بعدها، وجاء إلى المغرب ووجد تعزيزا له عند قبائل مكناسة من البربر.

الباب الأوّل

شخصيات تاريخية

الفصل الأوّل

الإسلام في الجزائر

1 ـ صولات بن وزمار المغراوي (القرن الأوّل الهجري)

عاش صولات بن وزمار المغراوي في القرن الأوّل الهجري غير أنّ جل المؤرخين تجاهلوه بحيث بقي ذكره مظمورا إلى يومنا هذا، والحق أنّ صولات بن وزمار قد لعب دورا كبيرا في نشر الدين الإسلامي بين قومه وبذلك مهد الطريق للفتوحات الإسلامية في المغرب والأندلس.

عندما بدأت الغزوات الإسلامية تتجه نحو المغرب في وقت عمر بن العاص يذكر بعض المؤرخين أنّ صولات بن وزمار الذي كان ملكا على قومه مغراوة اعتنق الإسلام وحسن إسلامه ويذكر ابن خلدون أنّه توجه إلى المدينة المنورة واتصل بالخليفة عثمان بن عفان وكان ذلك حوالي سنة 25 من الهجرة، واستقبله الخليفة بكل حفاوة وأقره على الملك ويقول بعض المؤرخين إنّ هذا الاتصال كان له أثر كبير على مجرى الأحداث التاريخية من بعد وأنّه أنشأ بعض الولاء بين بني أمية ومغراوة كما تدل علاقات الوفاء بينهما في الصراعات السياسية التي عرفها المغرب والأندلس فيما بعد.

وكانت مغراوة في عهد صولات بن وزمار من أكبر قبائل زناتة في الجنوب الجزائري وكان مجالها يمتد من الشلف إلى تلمسان ومن جبال تنس

شمالا إلى هضاب سعيدة جنوبا، وكانت عصبيتها أقوى من عصبية القبائل الزناتية الأخرى مثل بني يفرن في الشرق الجنوبي من الجزائر، وعندما رجع صولات بن وزمار إلى قومه أقنعهم باعتناق الدين الإسلامي وبضرورة محاربة النفوذ البيزنطي الذي كان متمركزا في المغرب الشرقي الذي كان معروفا في ذلك الوقت باسم إفريقيا، وقد نجح صولات بن وزمار في مهمته بحيث أصبح الجزء الكبير من المغرب الأوسط يدين بالدين الإسلامي بدون أن تحدث حروب أو غزوات.

وهذه الظاهرة لا يلتفت إليها معظم المؤرخين، بل هي التي تفسر "المسيرة" الكبرى التي قام بها عقبة بن نافع سنة 63 أي أربعين سنة تقريبا بعد إسلام صولات بن وزمار والتي قطعت المغرب كله بسهولة عجيبة تثير الدهشة عند الكثير من المؤرخين.

وليست لدينا معلومات ثابتة عن تاريخ وفاة صولات بن وزمار، والظاهر أنه عاش طويلا ساد على قومه بحكمة وبصيرة، ويغلب على الظن أنّه عاش حتى سنة 70 هـ الموافق لسنة 689م وترك لابنه حفص الذي خلفه ملكا واسعا وجيشا قويا استعان به طارق بن زياد عندما فتح الأندلس، وعند وفاة حفص خلفه ابنه خزر، ويذكر ابن خلدون أنّ خزرا هذا كان ملكا على مغراوة سنة 123 هـ/740م وهي السنة التي عرف فيها المغرب الأقصى الثورة الكبرى التي قادها ميسرة والتي أخلت كثيرا بنفوذ الأمويين بالقيروان

وجعلت خزر بن حفص بن صولات بن وزمار يعزز مكانته ويقوي نفـــوذه ويصبح ملكا كبيرا ينظر إليه المؤرخون كمؤسس لدولة بني خزر التي لعبت دورا كبيرا في المغرب والأندلس قبل ظهور الموحدين في القـــرن الســـادس الهجري.

2 ـ عقبة بن نافع :

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، قائد كبير في الجيش الإسلامي الذي قام بفتح مصر وإفريقيا، كان مولده سنة قبل الهجرة وعند وفاة الرسول ﷺ لم يتجاوز عمره عشر سنوات بكثير، ولذا لم يعتبره عدد من المؤرخين من صحابة الرسول ﷺ وكان ينتمي إلى قبيلة بني أمية و هو نجل عمر بن العاص وعندما قام هذا الأخير بفتح مصر كان عقبة بن نافع من قادة جيشه، ولمـــا استقر الأمر بمصر وعزم عمر بن العاص على غزو إقريقيا كلف عقبة بن نافع بقيادة الجيش وكان ذلك سنة 42 هـــ.

وفي سنة 49 هـــ عينه الخليفة معاوية واليا على إفريقيا وقام بغـــزوات كثيرة وقرر الإقامة بالجنوب التونسي وأمر ببناء مدينة القيروان.

وفي سنة 55 هـــ عزله معاوية من الولاية وعين خلفا له أبا المهاجر ولا يذكر المؤرخون سبب هذا التغيير إلاّ ما نقل عن معاوية من كونـــه أراد أن يكافئ أبا المهاجر، ولعله من الأرجح أن يكون معاوية قد استاء من تصّرفات

عقبة بن نافع وقساوته لبعض الأمراء من البربر الذين اعتنقوا الإسلام ووجدوا إهانة لهم في معاملة عقبة وكان معاوية أوصى أبا المهاجر بالتلطف مع عقبة غير أنّ أبا المهاجر تشدد معه وجعله في السجن وبعد ذلك أرسله إلى دمشق وحقد عقبة على فعله هذا.

وفي سنة 62 هـ عين الخليفة يزيد بن معاوية عقبة بن نافع على ولاية إفريقيا من جديد خلفا لأبي المهاجر ولم يجد عقبة بن نافع بدا من الانتقام من هذا الأخير فوضعه في قفص من حديد، وأراد عقبة أن يغير الوضع في إفريقيا والمغرب فعزل جميع من كان يتعامل مع أبي المهاجر وكان من جملتهم كسيلة بن لمزم ملك البربر وكان قد أسلم ونشأت علاقة ودية بينه وبين أبي المهاجر فوضعه عقبة بن نافع في قفص من حديد بعد أن لامه على هذه الصداقة وفي نفس السنة جهز عقبة بن نافع جيشا قويا وتوغل في المغرب الأقصى حتى وصل إلى طنجة ثم إلى ناحية سوس بالجنوب وكان يحمل معه في قفصهما مسجونيه أبي المهاجر وكسيلة.

وعند رجوعه من هذه المسيرة تمكن كسيلة بن لمزم من الفرار ولا نجد التفاصيل الكافية حول هذا الحدث عند المؤرخين وإنّما يذكرون فقط أنّ كسيلة استطاع أن يجمع شمل قبيلته وعددا من قبائل البربر التي لم تطمئن إلى سلوك عقبة بن نافع وتربّص لهذا الأخير في مكان يقال له تهودة بجنوب جبال الأوراس قرب بسكرة الحالية وعندما وصل عقبة انقض عليه كسيلة ونشب

قتال شديد قتل فيه عقبة وجميع أفراد جيشه وكان فيهم عدد من الصحابة التابعين وكان ذلك سنة 73 هـ.

وبعدما قتل عقبة بن نافع بسنين بنيت قبة في مكان المعركة دفن فيها عقبة وأصحابه ثم بني مسجد وبعد ذلك مدينة تحمل اسم سيدي عقبة وأصبح قبر عقبة بن نافع يزار ودخلت حياته في الأساطير.

3 ـ كسيلة بن لمزم :

هو كسيلة بن لمزم من ملوك البربر قبل انتشار الإسلام في المغرب، وقد اختلفت الروايات التاريخية في اسمه وفي صراعه مع عقبة بن نافع وشوهت سمعته فيما بعد ويتفق المؤرخون على أنّه ينتمي إلى قبيلة بربرية تقطن أماكن مختلفة من المغرب ويتمركز معظمها حسب ابن خلدون في ناحية تلمسان وفي سنة 51 هجرية أصبح كسيلة بن لمزم ملكا على هذه القبيلة التي لم تعتنق الإسلام بعد، وعندما عين أبو المهاجر في سنة 55 هـ واليا على القيروان (خلفا لعقبة بن نافع) اتصل بكسيلة وعرض عليه الإسلام، فأسلم كسيلة وحسن إسلامه، وقام بدعوة قومه إلى الدخول في الإسلام، ونشأت علاقة ودية كبيرة بين كسيلة وأبي المهاجر.

وعندما تولى الخلافة يزيد بن معاوية عزل في سنة 62 هـ أبا المهاجر من ولاية القيروان وأرجع عقبة بن نافع إلى مكانه ولكن هذا الأخير وضع أبا

المهاجر في السجن وأثقله بالحديد ولام على كسيلة صداقته بأبي المهاجر وسجنه بدوره وقام بإهانته أمام قومه، وعندما طاف عقبة بن نافع بنواحي المغرب كان السجينان في ترحاله و لم يكف عن إهانة كسيلة، فحقد عليه، حتى تمكن من الفرار. ولا يذكر المؤرخون الظروف التي وقع فيها هذا الحدث، ولكنهم يذكرون أنّ كسيلة استطاع أن يجمع قومه وقبائل البربر التي استاءت من تصرفات عقبة بن نافع، وأن يحشد جموعه بجنوب جبال الأوراس بمكان قرب بسكر تسمى تهودة وينقض على عقبة ورجاله وأن ينتصر عليه، وفي هذه الواقعة قتل عقبة ابن نافع.

ويقول المؤرخون أنّ كسيلة زحف بعد ذلك على مدينة القيروان واستولى عليها وأقام بها ملكا دون أن يرتد في إسلامه ودون أن يرغم قومه عن الردة.

غير أنّ هذه الحادثة لم ينشرح لها الخليفة يزيد وصمم على الانتقام من كسيلة فكلف زهير بن قيس أن يجهز جيشا قويا وأن يتوجه إلى قتال كسيلة، وفي سنة 67 هـ وقع قتال كبير بين الرجلين قرب القيروان كان النصر فيه لزهير بن قيس ووجد كسيلة بن لمزم مصرعه في هذا القتال بعد أن دام ملكه 16 سنة منها أربع سنوات قبل إسلامه.

4 ـ الكاهنة :

ملكة من ملوك البربر قبل الإسلام وكانت مملكتها بـالأوراس بشـرق الجزائر ولسنا نعرف عنها الكثير بالتدقيق وقد شوّه الكثير مـن المـؤرخين صورتها التاريخية الحقيقية و لم يذكر عنها إلاّ بعض الأحداث أقرب ما تكون إلى الخرافات، وهكذا نجهل حتى اسمها الحقيقي وروج عنها اسـم الكاهنـة وهي كلمة عربية لا يمكن أن تطلق على ملكة بربرية قبل الإسـلام، ولعـل وقوفها بقوة أمام الجيوش الإسلامية هو الذي جعل المؤرخين ينسبون إليهـا أشياء لا يمكن تفسيرها إلاّ كونها خارقة للعادة لا يقوم بها إلاّ الكهنة.

والكاهنة تنتمي إلى قبيلة جراوة البربرية المنتشرة في شرق الجزائر والـتي حافظت على مكانتها وقوتها حتى وصول الحماديين وظهرت الكاهنة علـى مسرح التاريخ بعد مقتل كسيلة بن لـمزم سنة 67 هـ، ولسنا ندري إذا كانت الكاهنة ملكة قبل هذا التاريخ ؟! وما طبيعـة علاقتـها بكسـيلة ؟ والشيء الذي نعرفه هو أنّ الكاهنة كانت تبلغ من العمر عتوا عند وفاتها سنة 78 هـ، مما يدل على أنّها ترأست قومها قبل كسيلة وأنّ مقتل هذا الأخير أحدث فراغا جعل البربر يلجؤون إليها ويلتفون حولها وينظمون مقاومتهم.

وعندما أقدم حسان بن نعمان على إفريقيا وتوغل في إفريقيا خرجت إليه الكاهنة في جموع البربر وتقدمت حتى وصلت إلى واد بين مدينة الخنشـلة وعين البيضاء فوقعت معركة دامية خرجت منها الكاهنة منتصرة وأرغمـت

حسان على التقهقر واقتفت أثره حتى وصل إلى برقة شرق طرابلس، وقد يذكر بعض المؤرخين أنّ هذه المعركة وقعت سنة 73 هـ وأنّه جاء بعدها زمان عرفت الكاهنة كيف تعيد الرفاهية إلى البلاد وأنّها عاملت الأسرى العرب برفق وأنّ واحدا منهم وهو خالد بن يزيد تبنته وأصبح معلم ابنيها اللذين اعتنقا الإسلام فيما بعد.

وفي سنة 78 هـ أمدّ الخليفة حسان بن نعمان بالجنود والعدّة وأمره بإعادة فتح إفريقيا وعندما وصل الخبر إلى الكاهنة حاولت أن تتجنب الحرب ولكن الشيء الذي لم تكتشفه إلاّ بعد هو أنّ الإسلام أخذ ينتشر بين البربر وأنّ الكثير من القبائل اعتنقت الإسلام وعبرت عن عدم وقوفها أمام حسان بن نعمان، ويذكر بعض المؤرخين أنّ الكاهنة لم تجد بدًّا حينئذ من استعمال الحرائق وأنّها أوصت ولديها أن يلتحقا بحسان وجمعت صفوفها المتبقية وقاومت حتى هلكت في معركة وقعت بالقرب من مدينة طبنة وماتت أمام بئر أطلق عليه اسمها.

5 ـ حسان بن نعمان :

حسان بن نعمان هو القائد الذي تغلب عل الكاهنة ملكة من ملوك البربر قبل الإسلام.

وكان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد عينه على إفريقيا بعد مقتل قيس بن زهير الذي تغلب على كسيلة بن ملزم غرب القيروان، وقد وقع هذا التعيين سنة 78 هـ، وكان حسان بن نعمان متقدما في السن غير أنّه استطاع أن يقود جيشه بصفة منتظمة فتوجه إلى تونس واستولى على جميع الحصون التي استرجعها البيزنطينيون بعد مقتل عقبة بن نافع، وتقدم حتى وصل إلى البحر في ناحية طبرقة ثم تراجع ونزل إلى الجنوب وفي سنة 73 هـ قرر الهجوم على ملكة البربر الكاهنة التي يقول عنها المؤرخون أنّها تستعمل السحر والتكهن، ولعلّ حسان قد احتقر قدرها على القتال، فتقدمت إليه والتقى الجمعان بوادي نيي بين مدينة الخنشلة وعين البيضاء، وتكبد حسان أكبر هزيمة وتراجع عن موقفه وانسحب إلى طرابلس واستقر بها حيث أخذ يسترجع قوته.

وفي سنة 78 هـ وصله المدد من مصر ومن دمشق وأمره الخليفة بأن يغزو من جديد إفريقيا وأخذ جميع احتياطاته فنشر في أطراف البلاد من يخبره عن تحركات الكاهنة وعن استعداد قبائل البربر، فتيقن من أنّ الإسلام قد انتشر في جميع المناطق وأنّ عددا كبيرا من القبائل لا ترى بأسا من قدومه، ويذكر بعض المؤرخين أنّ الإسلام دخل بيت الكاهنة إذ أسلم ابنها على يد خالد بن يزيد.

وتقدم حسان فوق أرضية متينة وحاصر الكاهنــة حــتى اضــطرها إلى استعمال الحرائق غير أنّ ذلك لم يفدها، إذ تمكن حسان من قتلها قرب مدينة طبنة وكلف ابنيها رئاسة قومها.

ورجع حسان إلى مدينة القيروان وأتم تنظيم الإدارة ووجه اهتمامــه إلى بناء دار صناعة للمراكب الحربية في مدينة تونس وأخذ يستعد لغزو بلــدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة 79 هـــ ذهب إلى دمشق ليخبر الخليفة بما قام به وبمــا كــان ينوي القيام به فجدد له الخليفة ثقته فيه وأمره بالرجوع إلى إفريقيا غــير أنّ عند مروره بمصر اعترض سبيله حاكم مصر عبد العزيز بن مروان وعزله عن منصبه ليعين مكانه صديقه موسى بن نصير فرجع حسان بــن نعمــان إلى دمشق و لم يلبث أن توفي سنة 80 هـــ.

6 ـ موسى بن نصير :

موسى بن نصير فاتح الأندلس ولد سنة 19 هــ/ 640 م وكان مــن أنصار الأمويين في صغره فلحق بالجيش وكان من أعظم قواده، ولزم عبــد العزيز بن مروان الذي كان واليا على مصر ونشأت مودة وثيقــة بينــهما استفاد الكثير منها موسى بن نصير وطلب الخليفة عبد الملك بن مروان مــن عبد العزيز أن يبعث إليه موسى ليكلفه بمهمة كبيرة لدى والي البصرة، غــير

أنّ تصرف موسى في البصرة أغضب الخليفة وأوهم به وتدخل عبد العزيز الذي طلب من موسى أن يلتحق من جديد به في مصر.

وفي سنة 79 هـ عزل عبد العزيز حسان بن نعمان الذي كان يستعد للرجوع إلى إفريقيا بعد أن تغلب على الكاهنة من منصبه بدون أن يشعر بذلك الخليفة وعين مكانه موسى بن نصير فتوجه هذا الأخير إلى طرابلس وإفريقيا والمغرب وأتم الفتح حسب بعض المؤرخين ولعل من الأرجح أن يكون موسى قد قام بتنظيم إدارة المغرب أكثر مما قام بفتحها كما يذكر المؤرخون لأنّه من المعروف أنّ سكان هذه الناحية قد اعتنقوا الإسلام منذ عشرات السنين و لم تبق هناك مقاومة خصوصا بعد مقتل الكاهنة، ولعل من الصواب أن تكون المعارك التي خاضها موسى موجهة ضد فرق من المسلمين تنتمي إلى الاتجاهات السياسية المختلفة التي ظهرت في المشرق والتي تسربت إلى المغرب.

لقد دامت هذه الفترة أكثر من عشر سنوات جاب فيها موسى جميع نواحي المغرب شرقا وغربا وشمالا وجنوبا والملاحظ أنّه كان يساعده في ذلك فارس من أصل بربري وهو طارق بن زياد، وعند رجوعه إلى القيروان سنة 89 هـ عين موسى طارقا على مدينة طانجة وأمره بالقيام بالتجهيزات اللازمة لفتح الأندلس.

وفي سنة 92 هـ عبر طارق مضيق البحر ونزل بالأندلس وتوغل فيها وتغلب على ملكها واستولى على عدة مدن، ولكن هذه المبادرة الجريئة من طارق أغضبت موسى بن نصير فالتحق بالأندلس وفتح بعض مدنها ثم أقال طارقا من منصبه غير أنّ الخليفة أرغمه على إعادته إلى مكانته ولكن العلاقة بينهما فسدت وأضطر الخليفة إلى إرجاعهما إلى دمشق خصوصا أنّ الخليفة لم يكن راضيا عن موسى من لدن توليته على إفريقيا.

وفي سنة 95 هـ رجع موسى إذا إلى القيروان وقبل توجهه إلى دمشق عين أبناءه على عدة مدن في إفريقيا والمغرب والأندلس، ثم وصل إلى دمشق سنة 96 هـ. ويذكر المؤرخون عدة روايات في الكيفية التي استقبل بها من طرف الخليفة، وقد اقترن وجوده بدمشق بموت الخليفة الوليد وتنصيب الخليفة الجديد سليمان وقد ساعد هذا التغيير موسى بن نصير في علاقته مع الخلفية إذ وجد عند هذا الأخير أذنا صاغية فقربه إليه ولزم بلاطه وفي سنة 98 هـ رافق موسى بن نصير الخليفة في رحلته إلى الحج وبالمدينة وافته المنية فجأة ودفن بها وكان يناهز الثمانين من عمره.

7 ـ طارق بن زياد :

طارق بن زياد فاتح الأندلس، وهو القائد الذي عرف كيف يتكلم إلى جنوده ليحثهم على الاستماتة في القتال وهو القائل "العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم والله إلاّ الموت أو الفوز" وفي الحقيقة لا نعرف الكثير عن

هذا الرجل ولا يروي عنه المؤرخون إلاّ هذا الحدث الذي هو عظيم في حدّ ذاته ولكنه ليس كاف لإعطاء صورة كاملة عن الرجل.

ويتفق جميع المؤرخين على أنّه ينتمي إلى القبيلة البربرية نفزاوة التي كانت تقطن بشرق قسنطينة، ولسنا ندري متى ولد. ويقول الزركلي أنّه كان ذلك سنة 50 هـ، ويقول المؤرخون أنّه وقع في الأسر وقد يكون ذلك في وقت كسيلة أو الكاهنة وأنّه كان مولى لموسى بن نصير، وعندما عين هذا الأخير على ولاية إفريقيا، كلّفه بقيادة الجيش، وكان مع موسى بن نصير عندما توجه إلى غرب المغرب ليغيد الأمن في تلك الناحية.

وفي سنة 89 هـ عندما رجع موسى بن نصير إلى القيروان عين طارق عاملا على مدينة طنجة، وفي هذه السنة بدأ نجمه يلمع بما قام به من الأعمال الجليلة التي جعلته يغزو إسبانيا وجنوب فرنسا في مدّة لا تتجاوز سبع سنوات.

عندما استقر بمدينة طنجة بدأ يتصل بالعامل الإسباني على مدينة سبتة الذي مكنه من العبور إلى إسبانيا على رأس جيش من 8000 جندي بربري، واستقر هذا الجيش فوق جبل أصبح يحمل اسمه "جبل طارق" وكان ذلك سنة 92 هـ وفي هذه الحملة خاطب جيشه بقوله المشهور الذي أوردناه في البداية، وغالب الظن أنّ هذا الكلام لم يوضع باللغة العربية نظرا لكون معظم الجنود لا يفهمون اللغة العربية.

وانطلاقا من المكان الذي استقر فيه بدأ طارق يتوغل داخل التراب الإسباني ويستولي على القرى الصغيرة ثم خاض معركة كبيرة ضد رودريغ ملك إسبانيا في مكان يسمى برباطة وتغلب عليه وقتل رودريغ في هذه المعركة وتابع طارق الجيش الإسباني المنهزم حتى استولى على أكبر مدن المملكة ومن جملتها إشبيلية وقرطبة ومالقة وأخيرا طليطلة، وهي عاصمة المملكة ثم توجه إلى الشمال حتى دخل فرنسا فأمر جيشه بمواصلة زحفه حتى وصل إلى مدينة ليون على نهر رون بالوسط الشرقي من فرنسا.

أمّا طارق بن زياد فإنّه رجع إلى حيث كان له لقاء مع موسى بن نصير وتلقى منه لوما مفزعا وعاب عليه "مغامرته" وتوغله بدون إذن منه ويذكر بعض المؤرخين أنّ موسى بن نصير عزل طارقا من قيادة الجيش ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك أمره باستناد قيادة الجيش إلى طارق من جديد فاستأنف غزواته وفتح مدينة بلنسية ومدينة سراقوستة ولكن سوء المفاهمة لم تزل بينه وبين موسى بن نصير.

وفي سنة 96 هـ طلب الخليفة من موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرجعا إلى دمشق، وأكرم طارقا وشرفه وبقي في دمشق حتى وفاته سنة 102 هـ.

الفصل الثاني

الدولة الرستمية

1- عبد الرحمن بن رستم

هو عبد الرحمن بن رستم بن برهم مؤسس الدولة الرستمية الإباضية بمدينة تيهرت سنة 160 هجرية، ولا يذكر المؤرخون التفاصيل الكافية عن حياته ويكتفون بذكر نسبه الفارسي وأنّ جده برهم كان من موالي الخليفة عثمان رضي الله عنه، ويقول بعض المؤرخين أنّ أباه رستم تزوج امرأة بربرية من قبيلة لمية التي يلجأ إليها عبد الرحمن فيما بعد كما سنراه، وقد يكون عبد الرحمن حسب هذا القول ينتسب من أمه لهذه القبيلة، ولسنا ندري أين ولد عبد الرحمن ولا أين نشأ ونعرف فقط أنّه كان يوجد في شبابه بين قبائل نفوسة البربرية بليبيا وأنّه توجه ضمن جماعة من الشباب إلى مدينة البصرة بالعراق وأنّه تتلمذ في هذه المدينة على أبي عبيدة التميمي رئيس فرقة الإباضية وأنّه كان كذلك ضمن مجموعة متكونة من خمسة أشخاص بعثهم أبو عبيدة إلى المغرب (ليبيا) لينشر المذهب الخارجي الإباضي، وكان على رأسهم أبو الخطاب وقد نجحت هذه الجماعة في مهمتها فاعتنقت القبائل البربرية من نفزاوة المذهب الإباضي وتمكنت من السلطة السياسية في مدينة طرابلس بقيادة أبي الخطاب.

وفي سنة 141 هـ استولى أبو الخطاب على مدينة القيروان وعين عبد الرحمن بن رستم واليا على هذه المدينة.

وفي سنة 144 هـ إثر مقتل أبي الخطاب في معركته ضد محمد أبي الأشعث الذي بعثه الخليفة الأموية ليسترجع نفوذه على المغرب، خرج عبد الرحمن بن رستم من مدينة القيروان لمؤازرة أبي الخطاب ولكنه لم يسعفه الحال و لم يجد بدا من التوجه نحو الغرب حتى وصل إلى قبيلة لمية فحضنته وآوته وبها قام عبد الرحمن بن رستم ببناء مدينة تيهرت.

وفي هذه المدينة انتظمت المجموعة الإباضية تحت القيادة الرشيدة لابن رستم وكان معروفا بكفاءته العلمية وبعدله وإنصافه وحسن رأيه. وفي هذه الفترة كلها التي دامت ستة عشر سنة كان عبد الرحمن يدين بالولاء لأبي حاتم الذي عين إماما للإباضية بليبيا بعد مقتل أبي الخطاب.

وفي سنة 151 هـ قام عبد الرحمن بن رستم بهجوم على مدينة القيروان ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة.

وفي سنة 160 هـ بعد وفاة أبي حاتم اتفقت جماعة الإباضية بعد مشاورة بين أطرافها في المغرب وفي المشرق على تعيين عبد الرحمن بن رستم إماما لها. وجل المؤرخين يذكرون هذا الحدث كبداية للدولة الرستمية التي استمرت فيها الإمامة لأولاد عبد الرحمن بعد وفاته حتى نهاية الدولة، ولكن في الحقيقة وإن كانت هذه الإمامة أخذت شكلا وراثيا فهي مبنية على الشورى الإسلامية ولا يتم تعيين الإمام إلاّ بعد مشاورة بين أطراف الإباضية والاتفاق الجماعي على هذا التعيين.

وقد دامت إمامة عبد الرحمن بن رستم ثمانية سنوات واستطاع أن ينشأ دولة منتظمة مبنية على العدالة الاجتماعية ومرجعها القرآن والسنة، وكان الحكم فيها جماعيا لا تؤخذ القرارات الهامة إلاّ بعد مشاورة عامة، وقد كان عبد الرحمن بن رستم في هذه الفترة القدوة الحسنة لما اتصف به من التقوى وحب الخير وحسن التدبير ومعاملة جميع المسلمين بالإنصاف والعدل، وانتشر المذهب الإباضي بين قبائل البربر المجاورة وساد الهدوء في الناحية كلها.

وفي سنة 168 هـ توفي عبد الرحمن بن رستم واتفقت جماعة الإباضية على تعيين ابنه عبد الوهاب خلفا له وإماما لهم.

2 - أبو يزيد مخلد بن قيداد النكاري :

ينتمي أبو يزيد بن قيداد النكاري إلى قبيلة وروبة، وهي فخذ من قبيلة بني يفرن من زناتة التي كانت مستقرة في الجنوب الغربي من الجزائر الحالية و كان أبو يزيد يدين بمذهب الخوارج وبالنزعة المتشددة منهم وهي النكارية وهو معروف بأنّه قاد ثورة عارمة ضد الفاطميين عندما كانوا متمركزين بالمهدية والقيروان.

ولد في سنة 270 هـ/883 م بالسودان، لأنّ أباه كان تاجرا وكان يتعامل كثيرا مع هذا البلد حتى أنّه استقر به وتزوج به فأمه اسمها سبيكة أنجبت له أبا يزيد هذا وفي صغره رجع أبوه إلى قبيلته واستقر أخيرا بتوزر وبها

تعلم أبو يزيد القرآن ودرس اللغة العربية والفقه الإسلامي، كما أنّه أصبحت له اتصالات مع النكاريين من مذهب الخوارج وكان هذا المذهب انفصل عن المذهب الإباضي وتنكر له وكفرهم وأباح دماءهم ودماء غيرهم من المسلمين.

وبعد وفاة أبيه اشتغل أبو يزيد بالتعليم فانتصب معلما للقرآن وداعيا للمذهب النكاري بين قومه واشتهر بينهم حتى أنّ أبا عمار الأعمى الإمام النكاري بايعه على قومه.

وقد علا صيته حتى أنّ السلطة الفاطمية تخوفت من شوكته وحكمت عليه بالموت، فاختفى ثم خرج من الناحية وتوجه إلى المشرق وأدى فريضة الحج وكان ذلك سنة 310 هـ. وبعد ذلك رجع إلى مدينة سبيطلة قرب توزر واستقر بها قليلا ثم غادرها حتى لا يقع في قبضة الفاطميين، ثم رجع إليها مرة أخرى متسترا غير أنّ السلطات الفاطمية تمكنت من إلقاء القبض عليه وسجن وكان ذلك سنة 325، وتجمع أصحابه وهاجموا السجن الذي كان فيه أبو يزيد وساعدوه على الخروج منه وتوجهوا كلهم إلى ضواحي ورقلة ومنها بدأ دعوته إلى الثورة فألب قبائل الأوراس ومسيلة وكذلك قبيلة مغراوة. وفي سنة 331 هـ أعلن ثورته ضد الفاطميين وولاءه للأمويين في قرطبة بالأندلس.

وانتشرت ثورته واستطاع أن يتغلب على أربوس وبجاية وتبسة ومرواجنة وبهذه الأخيرة قدم له أهلها حمارا وكان يركبه دائما حتى سمي "بصاحب الحمار" وكان اعرجا وكان متزهدا يلبس الصوف ومنصفا في أحكامه

فاشتهر بذلك وخضعت له القبائل وانحاز إليه أهل القيروان فدخل هذه المدينة مظفرا وهزم جيش الفاطميين بقيادة ميسور ووصل إلى المهدية وضرب عليها الحصار وكان ذلك سنة 334 هـ، ومنها رجع إلى القيروان ليتجه إلى غزو مدينتي سوسة وتونس غير أنّه لم يفلح وانهزم جيشه وثار عليه أهل القيروان فخرج منها وتوجه إلى الغرب فاقتفى أثره الخليفة الفاطمي المنصور الذي تمكن من استرجاع قوته فانهزم أبو يزيد في بسكرة ثم في مسيلة والتحق بجبال كيانة، غير أنّ شوكته أخذت في الاضمحلال وخرجت عنه كثير من القبائل وحاصره الخليفة المنصور الذي وجد مناصرة قوية من طرف زيري بن مناد الصنهاجي واشتد الحصار على أبي يزيد حتى وقع أسيرا بأيدي زيري بن مناد وهو مثخن بالجروح، مات من أثرها وكان ذلك سنة 337 هـ/947 م وقد بلغ 67 سنة من عمره وقد استمرت ثورته خمس سنوات وكادت أن تقضي على دولة الفاطميين الناشئة.

الفصل الثالث

الحماديون

1 ـ بلكين بن زيري بن مناد (المتوفي سنة 984/373)

بلكين بن زيري بن مناد من ملوك صنهاجة التي ملكت المغرب الشرقي والمغرب الأوسط من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري، وكان بجانب أبيه زيري بن مناد في الحروب التي قام بها هذا الأخير لمساندة الدولة الفاطمية الناشئة بالمغرب وتعزيز جانب صنهاجة في الاستحقاق بالملك.

وعندما اندلعت ثورة أبي يزيد ضد الفاطميين قام بلكين بدور ملحوظ في إخماد هذه الثورة والقضاء عليها. وبعد استرجاع الأمن كلفه الفاطميون بولاية المغرب الأوسط فأقام بمدينة اشير ومنها نازع قبائل زناتة الذين أرغمهم على اللجوء إلى الفيافي في الصحراء.

وقام بتنظيم المغرب الأوسط وببناء عدد من المدن ما زالت موجودة إلى يومنا مثل مدينة الجزائر والمدية ومليانة (سنة 960/349) وشيد المباني وأحيى العمران.

وفي سنة 358 هـ/968 م جهز الجيوش واتجه نحو الغرب فطرد ملوك بني خزر من قبيلة مغرواة وأرغمهم على الهروب إلى مدينة سجلماسة بالجنوب الغربي. وفي سنة 360 هـ/971 م اندلعت ثورة بمدينة المسيلة وفي

ناحية الزاب وإثرها قتل زيري بن مناد، فتوجه بلكين إلى الناحية وأعاد الأمن والاستقرار.

وفي هذه الأثناء انتقل المعز الفاطمي إلى مصر واستقر بالقاهرة وكلف بلكين بالمغرب كله وأسماه أبو الفتوح يوسف وكان ذلك سنة 361 هـ/972 م. وقام بلكين بتوطيد ملكه فغزى مدينة تيهرت ومدينة تلمسان وجعلها تحت ولايته وتوجه نحو طرابلس فضمها إلى مملكته بموافقة الفاطميين. وفي سنة 368 هـ/979 م توجه من جديد إلى المغرب وتوغل حتى استولى على مدينة فاس وسجلماسة ونازع نفوذ الأمويين بالمغرب وقاتل قبيلة برغواتة التي كانت تتحالف مع الأمويين، وفي سنة 373 هـ/984 م أصبح المغرب كله من طرابلس إلى فاس يخضع له ولعله أوّل ملك استطاع أن يوحد المغرب. وعند رجوعه أدركته المنية في طريقه بين سجلماسة وتلمسان، وترك لابنه المنصور الذي اعتلى على العرش بعده مملكة واسعة الأطراف.

2. حماد بن بلكين الصنهاجي (توفي سنة 419 هـ/1028 م) :

هو حماد بن بلكين بن زيري بن مناد مؤسس الدولة الحمادية في القرن الخامس الهجري، وينتمي إلى القبيلة الجزائرية الكبيرة، صنهاجة التي كانت تقيم بشمال البلاد، والتي ساندت دولة الفاطميين عند تأسيسها بالمغرب وقد

حفظ حماد القرآن وهو صغير وذهب إلى القيروان وبها درس اللغة العربية والفقه الإسلامي والفلسفة، وعندما استقرت الدولة الزيرية في تونس الحالية كلفه ملكها باديس بن منصور وهو ابن أخيه بولايات الغرب ليقوم بحماية الدولة من القبائل الزناتية المعادية لها، وفي سنة 387 هـ/997 م استقر حماد بمدينة أشير قرب المدية الحالية التي أسسها جده زيري بن مناد.

وقد بذل حماد في مهمته هذه جهدا كبيرا وبرهن عن كفاءته في خمسة عشر عاما استطاع أن يصد جميع الهجمات التي تعرضت لها الدولة من الجهة الغربية والجنوبية وأن يتوغل بجيوشه إلى المناطق النائية.

وفي سنة 390 هـ/1000 م، استطاع كذلك أن يخمد بحذق وشجاعة ثورة قام بها أعمامه مكسن وزاوي ضد الدولة وأن يرغمهما إلى مغادرة المغرب والفرار إلى الأندلس.

وفي سنة 395 هـ/1005 م قام بحروب ضد بعض قبائل زناتة وتمكن من توسع بالمملكة باستيلائه على عدة مدن في المغرب والجنوب.

وفي سنة 398 هـ/1007 م بدأ في بناء مدينة جديدة شرق مدينة أشير وهي مدينة القلعة التي أصبحت تعرف بقلعة بني حماد، وكانت مدينة حصينة قريبة من بعض القبائل الزناتية التي ما انفكت تثير الفتن.

ولكن هذا النشاط الملحوظ أثار تخوفات الملك باديس وجعل هذا الأخير يفكر في وضع حدّ مقبول لقوة عمه الشجاع، فعيّن ابنه المعز واليا على مدينتي قسنطينة ومسيلة اللتين كانتا تحت سلطة حماد الذي غضب من هذا القرار ورفضه وأعلن عن استقلاله بمدينة القلعة كما أن حماد رفض كذلك الطاعة للفاطميين و للمذهب الشيعي و تمسك بمذهب السنة.

و إثر هذا الموقف بعث باديس جيوشه على حماد الذي تحصن بالقلعة عدة شهور دون أن يستطيع باديس التغلب عليه حتى وافته المنية فجأة فرجعت جيوشه إلى القيروان و اعتلى عرش الملك ابنه المعزالذي لم يجد بدا من أن يتصالح مع حماد ويعترف به.

وهكذا نشأت بصفة رسمية الدولة الحمادية الجديدة وكان ذلك سنة 405 هـ/1014 م، وبدأ حماد ينظم مملكته ويعزز قواعدها وجعل من مدينة القلعة عاصمة كبيرة نالت شهرة واسعة في المشرق والمغرب بما أنشأه فيها من مدارس للعلم ومن صناعات مختلفة ومن رواج للتجارة والفلاحة، وقد شيد بها قصورا ومساجد تغنى بها الشعراء من كل بلد.

ولم ينفك ازدهار المملكة الجديدة يكبر مدة استيلائه على العرش حتى وافته المنية سنة 419 هـ/1028 م وترك لابنه القائد الذي خلفه ملكا واسعا لعب فيما بعد دورا كبيرا في تاريخ المغرب.

3 ـ المنصور بن الناصر الحمادي الصنهاجي (توفي سنة 498 هـ/1104 م) :

هو المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي، سادس ملوك الدولة الحمادية في القرن الخامس الهجري، عند وفاة أبيه الملك الناصر سنة 481 هـ/1088 م ارتقى العرش بدون منازع وكرس نفسه لتوطيد أركان المملكة وإتمام المشاريع الكبرى التي ابتدأها أبوه، ويقول عنه ابن خلدون أنّه كان مولعا بالبناء وأنّه هو الذي حضّر "الدولة الحمادية".

وقد دام ملكه سبعة عشر سنة (481-498 هـ) في الاستقرار والازدهار، وكان المنصور قليل الشغف بالحروب عادة الملوك ولذا اقتصر همه على الدفاع عن حدود مملكته التي كانت مهددة في ذلك الوقت من طرف بعض القبائل الزناتية من جهة الجنوب التي كانت تتحالف أحيانا مع الزيريين في الشرق ومن طرف الدولة المرابطة الناشئة التي بدأت تتوسع من جهة تلمسان، وقد استطاع المنصور أن يواجه هذا الخطر بكل حذق وشجاعة.

وفي سنة 483 قرر نقل العاصمة من مدينة القلعة إلى مدينة بجاية التي كان بناها أبوه لإنشاء مرسى كبيرة تستطيع الدولة أن تنطلق منها لتلعب دورها في البحر المتوسط، وقد أنشأ بها دارا لصناعة السفن الحربية والتجارية جعلت من بجاية أكبر المدن في ذلك الوقت، كما أنّ المنصور أخذ يوسع في

تعمير المدينة فبنا قصورا رائعة الجمال كقصر اللؤلؤ أو قصر أميمون الذي أشاد الشاعر ابن هانئ بأبهته وأصبحت بجاية عاصمة مشهورة مثل قرطبة والقاهرة وبغداد، يؤمها العلماء والطلبة من كل مكان من العالم الإسلامي والعالم المسيحي لما فيها من العلم والصناعات.

وفي سنة 487 هـ ثار عليه عمه أبو يكني في مدينتي قسنطينة وعنابة فجهز جيشا وطارد الثائر حتى ألقي القبض عليه في جبال الأوراس واستطاع بذلك أن يثبت سلطته على الناحية الشرقية كلها.

وفي نفس السنة وجه عنايته للرد على تسرب جيوش المرابطين من الناحية الغربية فكلف حليفه وصهره ماخوخ الذي كان على رأس قبيلة أمانو شرق مدينة الجزائر أن يقود الجيوش نحو تلمسان وأن يرد هذا الهجوم بكل حزم وأرغم دولة المرابطين على التراجع إلى خط وراء مدينة تلمسان، ولكن في سنة 496 هـ وقع خلاف بينه وبين ماخوخ فانضم هذا الأخير إلى المرابطين، فجهز المنصور جيشا متكونا من 20.000 جنديا وقاده بنفسه حتى وصل إلى تلمسان فانتزعها من يد منافسه وعزم على أن يواصل الحرب حتى إبادة المرابطين ولكن ترامت عليه امرأة الوالي الذي نصبه المرابطون وتذرعت إليه أن لا يكون قاسيا وأن يرحم أعداءه، فلم يتحمل المنصور

الموقف فأوقف القتال وأطلق سراح جميع الأسرى وأبرم اتفاقا لإقامة السلم بينه وبين المرابطين، مما يدل على علو همته وصفاء نيته.

وعند رجوعه من هذه الواقعة خاض بعض الحروب ضد بعض القبائل الزناتية التي اغتنمت فرصة ابتعاده من العاصمة لتتحرك، وارجع الهدوء إلى جميع أنحاء مملكته، ثم رجع إلى مدينة بجاية مبجلا مقدرا، وزاد في ازدهار مملكته.

وفي سنة 498 هـ/1104 م توفي بعاصمته واعتلى العرش بعده ابنه باديس ملكا على دولة عظيمة قوية.

4 ـ دولة بني حماد بين القلعة وبجاية* :

أتقدم إليكم بهذا العرض المتواضع ورجائي أن أفيدكم واستفيد منكم الكثير.

لقد حضرت موضوعي كما يشير لذلك عنوان هذه المحاضرة في بعض النقط تتعلق بفترة معتبرة من حياة بني حماد تجمع بين المرحلتين الكبيرتين اللتين عرفتهما هذه الدولة، وهي الفترة التي نرى فيها انتقال عاصمة بني حماد

* محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي الأول حول قلعة بني حماد، 25/23 سبتمبر 1987 م

من القلعة إلى بجاية وهي تشمل بالتقريب عهد السلطان الناصر والسلطان المنصور، ولقد أطرح أمامكم سؤالين اثنين :

1 - لماذا نقل الحماديون عاصمتهم من القلعة إلى بجاية ؟

2 - ما هو مصير القلعة بعد هذا الانتقال ؟

ولعل الكثير منكم يعرف الجواب عن هذين السؤالين ولقد تحدث عنه الكثير من المؤرخين، نعم هذا صحيح، ولكن أطرح هذا السؤال من جديد لأني غير مقتنع بالجواب المتبادل، وأرجو أنّ هذه التساؤلات تساعد على إلقاء ضوء جديد على هذه الفترة من تاريخ الجزائر.

وفي البداية أريد أن أذكركم بالأحداث الكبرى التي وقعت في هذه الفترة :

454 - الناصر يصبح ملك بني حماد.

457 - معركة سبيبة التي ينهزم فيها الناصر.

460 - الصلح بين تميم والناصر.

461 - بناء مدينة بجاية.

480 - تغلب النورمان على المهدية.

481 - وفاة الناصر وارتقاء المنصور على العرش.

483 - نقل العاصمة إلى بجاية.

512 - خروج العزيز إلى القلعة لفك حصار الهلاليين لها.

543 - يحي يتفقد القلعة وينقل ما بقي منها.

547 - تغلب عبد المؤمن على الحماديين ودخوله إلى بجاية والقلعة.

1 – نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية

إنّ أغلب المؤرخين القدماء والمحدثين يربطون قرار السلطان الناصر لبناء بجاية بمعركة سبيبة التي وقعت بينه وبين الهلاليين والتي انهزم فيها الناصر واستولى الهلاليون على ضواحي القلعة ومكثوا محاصرين لها وهذه الهزيمة هي التي جعلت السلطان الناصر يغيّر مقر عاصمته ويختار مكانا أكثر أمنا وبعيدا عن هجومات الهلاليين، يعني في بجاية.

فابن الأثير وابن خلدون يجعلان من هذه الهزيمة السبب الرئيسي في تغيير العاصمة إلى بجاية. يقول ابن خلدون : *"ونزل -يعني المنصور- بجاية سنة 83 وواطنها بعساكره ابتعادا من منازل العرب وما كانوا يسمونهم بالقلعة من*

خطة *الخسف*". ويؤكد هذا الاتجاه الشيخ مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر.

إنّ المؤرخين الفرنسيين اعتمدوا هم كذلك هذه الرواية وشرحوها وأعطوا لها بعدا يخدم مغزاهم السياسي ولعل المؤرخين الجزائريين المعاصرين يتطرقون إلى هذه النقطة بنفس السهولة ولا يتعبون أنفسهم في البحث عن الحقيقة التاريخية وإن قلّت الوثائق والمراجع، بحيث أنّ الاعتماد السائد اليوم هو أنّ سبب تهديم القلعة كعاصمة ثم كمدينة يرجع أولا وقبل كل شيء إلى حصار الهلاليين لها قبل أن يهدمها تماما عبد المؤمن الموحدي ولنا عودة إلى هذه النقطة بعد قليل.

ويبدو لي أنّ الحقيقة تختلف عن هذا الاعتقاد السائد، فالمتمعن في الأحداث التي وقعت في هذه الفترة وخصوصا في الكيفية التي وقعت بها يدرك ويشعر أنّ تغيير العاصمة من القلعة إلى بجاية يخضع إلى استراتيجية بعيدة المدى وضعها الحماديون لأنفسهم، ويجب أن لا ننسى أنّ هذه الفترة تعد القمة في عظمة الدولة الحمادية وكانت هذه الدولة تظهر في هذه الفترة أقوى وأبهى من دولة الزيريين في المهدية.

وقبل أن نشرح هذه الاستراتيجية نرجع إلى ما أورده المؤرخون من حصار الهلاليين للقلعة، هذا الحصار الذي ينطلق من واقعة سببية، فواقعة

سببية هي معركة تكتيكية وقعت بين الزيريين والحماديين بصفة غير مباشرة وهي في نفس الوقت معركة صلح وقعت بين رياح وزغبة من جهة والأثبج وعدى من جهة أخرى، وهي معركة صلح على ظهر الحماديين ولفائدة الزيريين. وواقعة سبيبة كذلك هي معركة انتقام لقبائل زناتة من بني أولومي وبني راشد وبني أومانو ضد الحماديين.

هذه الواقعة جمعت متنافسين أربعة : الزيريون، بنوهلال، قبائل زناتة والحماديون، وخسر المعركة الحماديون لغرورهم بقوقمم الجديدة، هذا الغرور الذي جعلهم لا ينتبهون للخديعة التي دبرت عليهم داخل صفوفهم. يقول ابن خلدون : "*ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات داخل الأثبج صريخا به على رياح فأجابهم ونهض إلى مظاهرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل الأربيس وتوقعوا بسببه فغدرت به زناتة وجروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسيسة ابن المعز بن زيري بن عطية وإغراء تميم فانهزم الناصر*"

فمعركة سبيبة لم تكن مصيرية بالنسبة للحماديين ولم يخرج منها الهلاليون أقوى من قبل بل كانت قوقمم متوقفة على تحالفهم مع الزيريين أو الحماديين حسب الظروف فقوة الدولة الصنهاجية لم تضعف بعد هذه المعركة بل كما ذكرنا فإن العمران لم يتوقف بعد هذه الواقعة بل أخذ يزدهر

كر من ذي قبل حتى داخل مدينة القلعة ويشهد بذلك الإدريسي الذي أعطانا وصفا حيا في ذلك الوقت لهذه المدينة .

وقد فطن الصنهاجيون للخطأ الذي ارتكبوه، فعندما قدمت رياح الغنائم التي أخذها من السلطان الناصر الحمادي إلى السلطان تميم الزيري شعر هذا الأخير بنوع من الامتعاض والندم و لم يأخذ الغنائم، كما أنّ السلطان الناصر بدأ يشعر أنّ عداوته لتميم لم تكن في صالحهما بل ربما قد يستفيد منها أعداؤهما.

فجاءت معركة سبيبة كمنقذ، ومنبه و لم تطل المدة حتى تصالح السلطان الناصر وتميم وتصاهرا وكان ذلك سنة 461 هـ وهي السنة التي قرر فيها الناصر بناء بجاية، يعني أربع سنوات بعد سبيبة فقرار بناء مدينة بجاية لم يكن نتيجة لواقعة سبيبة وحصار الهلاليين للقلعة ولعله نتيجة للصلح المبرم بين السلطانين.

ثم شيء آخر وهو أن نقل العاصمة لم يصرح به الناصر و لم يقم به في حياته بل المنصور هو الذي نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية وكان ذلك سنة 483 هـ، يعني 26 سنة بعد معركة سبيبة و 29 سنة بعد القرار ببناء بجاية.

فهذه الأحداث تبين لنا أنّ ضغط الهلاليين على القلعة وإن كان موجودا إلاّ أنّه لم يكن يثير تخوفات الحماديين في هذه الفترة بل كان الحماديون في موقف القوة تجاه الهلاليين إلى درجة أنّهم جندوا جميع قبائل الهلاليين من رياح وزغبة والأثبج ومعقل في صفوفهم ضد المرابطين في ناحية تلمسان في عهد المنصور.

وهذه القوة لم تضعف بحيث نرى السلطان العزيز سنة 512 لم يجد صعوبة كبيرة في التغلب على الهلاليين المحاصرين للقلعة وكان خروجه لهم من بجاية. ويقول ابن خلدون : "*وحصر العرب في أيامه -يعني العزيز- القلعة وهم غازون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها وعظم عيثهم وبلغ الخبر العزيز فبعث ابنه يحي وقائده علي بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبئة فوصل إلى القلعة وسكن الأحوال وقد آمن العرب واستعتبوا فاعتبوا وانكفأ يحي راجعا إلى بجاية*".

إنّ العبارات التي استعملها ابن خلدون وهو خبير في هذا تدل على أنّ العرب الهلاليين حتى وقت العزيز وبعده يهابون قوة الحماديين وهذا ليس أنّهم لا يستغلون الفرص لتوجيه ضرباتهم مثل ما فعلوه مع العزيز وإن أبدوا توبتهم في الحين كما يذكره ابن خلدون.

ومما يلاحظ ويجب التأكيد على هذا أنّ المؤرخين لا يذكرون اصطداما وقع بين الهلاليين وبني حماد من واقعة سبيبة سنة 547 هـ حتى حصارهم القلعة سنة 512 هـ في وقت العزيز، يعني تمر ستون سنة دون أن يكون ذكر للهلاليين في مملكة بني حماد، اللهم ما كان من تبعات واقعة سبيبة وهي تدل على أنّ الناصر استرجع قوته بسرعة.

يقول ابن خلدن عند ذكره لدولة الناصر ما بين سنة 457 و 460 هـ :

أ- " *خرج المستنصر بن خزرون الركاني من مصر ووصل إلى طرابلس فوجد بني عدي بها قد أخرجهم الأثبج وزغبة من إفريقيا فرغبهم في بلاد المغرب وسار بهم حتى نزل المسيلة ودخلوا أشير وخرج إليه الناصر ففر إلى الصحراء* ".

ب- " *وبلغه -يعني الناصر- عن بني توجين من زناتة أنهم ظاهروا بني عدي من العرب على الفساد وقطع السبيل، وأميرهم إذ ذاك بن مناد عبد الله فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر. وتقبض على أمراء بني عدي وتقبض أيضا على أمراء بني توجين وأحضرهم فوبخهم وقتلهم جميعا* "

و بناء على هذه الأقوال فإنني اعتقد أنّ مدينة القلعة لم تتضرر من ظهور الهلاليين وأنّها بقيت تلعب دورا هاما في الدولة الحمادية. لماذا إذا نقل الحماديون عاصمتهم من القلعة إلى بجاية ؟

بما أنّنا نفينا وفندنا قول الذين يرجعون سبب انتقال العاصمة من القلعة إلى بجاية ظهور الهلاليين وضغطهم على المدينة فإنّ السبب الرئيسي يرجع حسب استنباطنا إلى استراتيجية عسكرية وسياسية ظهرت للسلطان الناصر وسار على منوالها السلطان المنصور ما هي هذه الإستراتيجية ؟.

يذكر المؤرخون أنّ اختيار موقع بجاية لبناء مدينة جديدة به كان من وحي وزير السلطان تميم عندما جاء إلى القلعة مارا على الساحل، حسب ابن الأثير فإنّ الوزير محمد بن بعبع هو الذي أشار على السلطان الناصر بضرورة اختيار موقع بجاية ولكن هذه الرواية لا تشرح لنا موقف الناصر وإن هي تذكر ربما السلطان بهذا الاقتراح فإنّه لا يمكن أن تكون هذه الموافقة خالية من استراتيجية واضحة ربما قد نستخرجه نحن من الحكاية نفسها وكذلك مما نعرفه عن الحماديين.

ويذكر ابن خلدون رواية أخرى عن بناء بجاية، فهو يقول باختصار: وفي سنة 460 افتتح (يعني الناصر) جبل بجاية واختط به المدينة ولا يشير تمام إلى مرور الوزير بعبع فكيف يمكن التوفيق بين الروايتين ؟ ونتساءل كيف

يستطيع أن يمر الوزير بعبع من مكان كان مجهولا ليس به طريق إلى القلعة والناحية كلها كانت لا تخضع للحماديين ولعل الصواب أنّ الوزير وافق السلطان عند فتحه لهذه الناحية ؟ ومهما يكن فإنّ الناصر فتح هذه الناحية وبعد الفتح يقرر بناء مدينة بجاية.

ومن جهة أخرى فإننا نعلم أنّ ملوك صنهاجة معروفون بميلهم للتنظيم والحكم وخصوصا لبناء المدن، فكثير من المدن الكبرى التي تعرفها الجزائر اليوم يرجع تاريخ بنائها إلى عهد الصنهاجيين : أشير، القلعة، مدينة الجزائر، مليانة، بجاية وغيرها من المدن التي وسعوا فيها وصانوها وأدخلوا فيها الرفاهية مثل مسيلة وطبنة ... الخ.

إذن فإنّ بناء مدينة بجاية زيادة على القلعة يدخل ضمن النشاط العادي للحماديين ولكن الظروف التي وقع فيها بناء مدينة بجاية تشير إلى تحول في طموحات بني حماد.

في هذه الفترة كانت الدولة الزيرية ضعيفة فقد كثر أعداؤها وأصبحت لا تقوى على لم الشتات لتواجه بها الأحداث فأخذت مملكتها تضعف وأخذ رقعتها يتقلص، ومما لا شك فيه أنّ الناصر شعر بهذا التحول وأراد أن يملأ هذا الفراغ، وهذا ما توحي به الحكاية التي أوردها ابن الأثير وذكرناها سابقا

وهذا ما يذكره كذلك جميع المؤرخين من أنّ الدولة الحمادية بلغت أوج قوتها في عهد الناصر والمنصور.

ربما أنّ الدولة الزيرية كانت تلعب دورا كبيرا في البر والبحر، وبما أنّ الناصر حاول أحيانا بنجاح وأحيانا لا (مثل واقعة سبيبة) أن يضغط على الدولة الزيرية من الناحية الجنوبية والغربية (فقد تمكن من تعيين عامل موال له على مدينة تونس) فإنّه من الممكن أن يكون الناصر قد رأى ضرورة ملأ الفراغ من الناحية الشمالية، يعني في البحر وهذا لا يتأتى إلاّ انطلاقا من قاعدة بحرية محصونة مثل موقع بجاية، فبناء المدينة الجديدة كانت أوّل خطوة للسيطرة في البحر الأبيض المتوسط.

فلقد أخذ الوجود الإسلامي في صقلية في الأفول بسبب ضعف الزيريين وحماقة الفاطميين وفي سنة 460هـ يعني في السنة التي بدأ فيها الناصر يبني مدينة بجاية كان من الممكن إنقاذ هذه الجزيرة، ونحن نعلم أنّ جزيرة صقلية استولى عليها تماما روجار الروماندي في سنة 484 يعني تقريبا عشرين سنة بعد عزم الناصر وفي نفس السنة التي أصبحت فيها مدينة بجاية عاصمة للحماديين، فالفترة قصيرة جدا ولكن الاتجاه كان في بناء أسطول قوي يستطيع أن يلعب دورا هاما في شرق البحر الأبيض المتوسط ولكن الظرف

حيت هذا الاتجاه ولعل السبب الرئيسي في ذلك يرجع إلى ظهور المـــرابطين في المغرب وضرورة مواجهة هذا الجديد على الدولة الحمادية.

2 – مصير القلعة

فبناء مدينة بجاية كان يخضع لهذه الاستراتيجية التي يقول لنا التاريخ إنّها تتحقق، وهذا يعني أنّ الحماديين لم يتخلوا يوما واحدا عن الاعتناء بالقعلة وتعميرها وصيانتها والدفاع عنها ولهذا طرحنا سؤالا في البداية وقلنا ما مصير القلعة بعد نقل العاصمة إلى بجاية ؟

فالجواب واضح كما أشرنا إليه منذ قليل ويكفي أن نذكر أنّ العزيـــز لم يتردد لحظة واحدة بسنة 512 هـــ ليخرج على رأس جيش قـــوي ليفـــك الحصار الذي أقامه الهلاليون على المدينة، والمعروف أنّ الطريق الذي كـــان يربط بجاية بالقلعة كان محل عناية كبيرة من طرف الحماديين حـــتى نهايـــة دولتهم، مما جعل القلعة تبقى كما كانت من قبل نقل العاصمة وهناك دلائل كثيرة زيادة على ما ذكرناه من الناحية العسكرية والسياسية تثبت أنّ مدينة القلعة لم تفقد من أهميتها، منها أنّ المنصور بنى في القلعة وهو مقيم ببجايـــة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام. ومن هـــذه الـــدلائل الـــدور

التجاري بين الشمال والجنوب والشرق والغرب كما يذكر ذلك الإدريسي مع العلم انّ القلعة كانت مفترق الطرق أو ملتقى حسب الظروف.

وبقيت القلعة كذلك تلعب دورا هاما في الميدان العلمي والثقافي، فإنّ أبا الفضل النحوي وهو عالم جليل يعد بمثابة الإمام الغزالي لم يغادر القلعة حتى توفي بها سنة 513 هـ يعني أكثر من أربعين سنة بعد نقل العاصمة، مما يدل على أنّ القلعة لم تفقد أهميتها وبقيت تلعب دور العاصمة الثقافية كما كانت من قبل يفد إليها الطلبة والعلماء ويشع منها العلم والمعرفة. ويذكر التاريخ أنّ السلطان العزيز تتلمذ على أبي الفضل بالقلعة وكان يقيم بها قبل أن يخلف أباه المنصور على العرش ويذكر الغبريني عددا كبيرا من العلماء تخرجوا من القلعة في المائة السادسة، يعني عدة سنوات بعد نقل العاصمة مثل : أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد الذي ولد بمدينة حمزة سنة 548 هـ يعني في عهد الموحدين بعد انقراض الدولة الحمادية وانتقل إلى القلعة وتعلم بها.

كل هذه الدلائل تدل على أنّ القلعة لم تفقد أهميتها إلاّ مدة طويلة بعد نهاية الدولة الحمادية، وهنا نشير كذلك إلى قضية هدم مدينة القلعة، ولقد لاحظنا أنّ المؤرخين يذكرون التاريخ أحيانا بصفة إجمالية دون أن يشعروا بالتناقضات التي يشيرون إليها، فهم يذكرون أنّ القلعة هدمت عن آخرها لما تغلب عليها عبد المؤمن الموحدي، يقول مبارك الميلي "وحرق الموحدون

ـــاكنها فخربت قلعة حماد كما خربت أشير"، وبقي الاعتقاد ســـائدا أنّ
ــية القلعة اندثرت مع الموحدين يعني سنة 548 هـــ رغم أنّ الدلائل تشير
ـ عكس ذلك ومن هذه الدلائل نذكر اثنين يبينان أنّ القلعة لم يهدمها عبد
ـومن وأنّها بقيت تلعب دورها مثل المدن الأخرى الــتي تغلــب عليهـــا
ـحدون مثل الجزائر وخصوصا بجاية، فكيف قمدم القلعة وقد فقدت دورها
ـــياسي وتحفظ بجاية وهي عاصمة الدولة المغلوبة ؟

الدليل الأوّل هو ما ذكره الغبريني فيما يخص محمد بن علي بـــن حمـــاد
ـدد آخر من العلماء الذين تعلموا في القلعة بعد سنة 547 هـــ، لو هدمت
ـلعة في هذه السنة لهاجرها العلماء ولفقدت مركزها الثقافي بل نراها تنافس
ـما بجاية وتزخر بالعلم والمعرفة وكثير من العلماء ينتقلون منها إلى بجايـــة
وهذا النشاط العلمي بقي حيا أكثر من قرن بعد تغلب الموحدين على القلعة.

والدليل الثاني هو النقود التي كشفت عنه الحفريات المختلفـــة في آثـــار
ـلعة والتي يذكرها رشيد بوروبية في كتابه "المدن المفقودة" وهذه النقـــود
ـرجع عهدها إلى خلفاء الموحدين بعد عبد المؤمن وإلى خلفاء بني حفـــص،
ـوجود هذه النقود يدل على أنّ المدينة كانت تعرف حياة اقتصادية وتجارية
في عهد الموحدين والحفصيين، فالحياة بقيت إذا عادية بالقلعة ســـواء مـــن
ـاحية التجارية أو من الناحية العلمية والثقافية، ومدينة القلعـــة لم يهـــدمها

الموحدون وإنّما بقيت حية مدة طويلة بعد انقراض دولة بني حماد، يبقى على العلماء أن يحددوا هذه المدة.

وفي الحقيقة فإنّ المؤرخين لا يذكرون مدينة القلعة بعد القرن السادس إلا نادرا وربما انعدام ذكرها تماما في حين أنّ ذكر مدينة مسيلة وبسكرة وبجاية بقي واردا بكثرة ولقد ذكرها ابن خلدون مرتين في عهد الموحدين مع ذكر لثورة على بن غانية: " *وكان والي القلعة قاصدا مراكش وهو يستخبر خبر بجاية فرجع وظاهر السيد أبا الربيع (والي بجاية) وزحف إليها علي بن غانية فهزمها*". ثم يقول ابن خلدون كذلك "*ثم نهض -يعني ابن غانية- إلى القلعة فحاصرها ثلاثا ودخلها عنوة*"، فالقلعة إذا لم تفقد أهميتها في هذا العهد إذ كان على رأسها والي شأنها شأن بجاية، وقد وقعت هذه الأحداث أربعين سنة بعد سقوط دولة بني حماد (587-1183).

ويبدو أنّ ابن خلدون لا يعرف هذه المدينة في وقته يعني في القرن الثامن فهو يقول "*واحتط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة اثنين وتسعين وهو جبل مجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال*" فمتى هدمت القلعة ومن هدمها ؟ ولعل إقامة مثل هذه الندوة يساعد كثيرا على الجواب عن هذا السؤال.

الفصل الرابع

الموحّدون

1 ـ ابن تومرت في بجاية

إنّ الحديث عن ابن تومرت وعن الدولة الموحدية طويل وعـــريض وقـــد تناوله القدماء والمعاصرون بكثير من التفاصيل، وأطوار هذه الدولـــة وحيـــاة ملوكها ومؤسسها معروف بكيفية مرضية، ولقد أورد الأســـتاذ بورويبـــة في كتابه "ابن تومرت" الذي وضعه باللغة الفرنسية 37 دراسة تناولت بالبحـــث الدولة الموحدية وهذه قائمة غير مكتملة لم يعتن صـــاحبها إلاّ بـــالأهم مـــن المراجع والتي تخص موضوعه.

ولقد جئت بهذه المقدمة لأقول فقط أنّ الحديث عن هذه الدولة وعن ابن تومرت قد يصبح من العموميات المملة التي لا تفيد شيئا إذا اقتصرت على ما قيل ولهذا ترددت نوعا ما في اختياري للموضـــوع ثم بـــدا لي أنّ المـــؤرخين القدماء والمعاصرين يتعرضون للفترة التي قضاها ابن تومرت ببجاية بشيء من الغموض وعدم الدقة وأحيانا يتناقضون فيما بينهم، كلهم يعتبرون هذه الفترة مصيرية للدولة الموحدية لأنّه وقع فيها اللقاء بين ابن تومرت وعبـــد المـــؤمن. فأردت إذا أن أرجع إلى هذه الفترة بالضبط وأن أعطيها عناية أكثر لعلني آتي

بعض التفاصيل الدقيقة التي سوف تبين لنا نوع الأهمية التي تختص بها هذه الفترة، ولعل هذا النوع من التدقيق يبدو ضروريا كذلك بالنسبة لجميع الفترات التي قضاها ابن تومرت في رحلته إلى الشرق ذهابا وإيابا، وخصوصا بالنسبة للجزائر الفترة التي قضاها بالونشريس والتي التقى فيها بأحد أصحابه العظام وهو البشير الونشريسي، وسوف أعود إلى هذه النقطة فيما بعد وكذلك الفترة التي قضاها بمدينة تلمسان وهي المحطة التي يذكرها جميع المؤرخين عند ذكر رحلة ابن تومرت قبل رجوعه إلى السوس بين قبيلته.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الأستاذ رشيد بورويبة قد قام بعمل يستحق التنويه به في كتابه الذي ذكرته سابقا، وقد وجدت فيه الجواب عن كثير من الأسئلة التي تطرح نفسها عند قراءتنا للدراسة السابقة الخاصة بابن تومرت، فهذا الكتاب مفيد جدا ولكنه كما ذكرت يحتاج هو بدوره إلى دراسات أخرى وهذا هو التقدم العلمي يبني حجرة بعد حجرة وتظهر لنا دائما أفق جديدة تحتاج إلى دراسة جديدة وهذه ثلاثة أسئلة سوف أتطرق إليها :

1 - المدة التي أقامها ابن تومرت ببجاية.

2 - مدينة بجاية في هذه الفترة.

3 - أهمية لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن.

1 – المدة التي أقامها ابن تومرت ببجاية :

إنّ السؤال الذي لم نجد له جوابا عند المؤرخين القدماء والمعاصرين هو متى وصل بالضبط ابن تومرت إلى بجاية ومتى خرج منها حتى نستطيع أن نعرف المدة التي أقام فيها بالميدنة، فجميعالمؤرخين متفقون على أنّ ابن تومرت وصل إلى مراكش بعد رجوعه من الشرق سنة 514 هـ/1120 م ونجد مؤرخا واحدا حسب معلوماتي وهو ابن الأثير يذكر مرور ابن تومرت بمدينة المهدية سنة 505 هـ وإذا اعتمدنا هذا التاريخ نجد أنّ المدة التي قضاها ابن تومرت بين المهدية ومراكش هي تسع سنوات وهي فترة طويلة قد يكون ابن تومرت قضى معظمها بمدينة بجاية نظرا للحوادث الهامة التي عرفها في هذه المدينة و يذكرها المؤرخون، ولكن كثيرا من المثقفين يفندون قول ابن الأثير و يعتمدون عليه ويرون أنّ سنة 505 هـ غير صحيحة وأنّ ابن تومرت وصل إلى المهدية بعد هذه السنة بكثير.

وهناك مؤرخان يذكران وصول ابن تومرت إلى بجاية في سنة 1 هـ/1117 م حسب قول ابن القطاف وفي سنة 512 هـ حسب قول خلدون، ورشيد بورويبة يرجح أن يكون وصوله إلى بجاية سنة 1 هـ/1117 م، ويعلل هذا الترجيح بكون الفترة التي قضاها ابن تومرت بـ الإسكندرية وبجاية ومراكش وهي 18 شهرا قصيرة على الفترة التي قضاها

ومراكش وهي تمتد 36 شهرا، ولكن هذا الاستنتاج يستعمله بورويبة فقط تاريخ وصول ابن تومرت إلى بجاية وهي سنة 511 هـ كما تا وعلى هذا نعرف حينئذ أنّ المدة التي قضاها ابن تومرت بين وصوله إلى ومراكش تستغرق 36 شهرا، يعني ثلاث سنوات ولكن هذا الاستنتاج لا مدة إقامة ابن تومرت في بجاية ولو كنا نعرف المدة التي يقيم فيها ابن ت في المحطات الأخرى التي مر بها قبل وصوله إلى مراكش لاستطعنا أن مدة إقامته ببجاية ولكن هذا لا يذكره المؤرخون، والشيء الذي نعرفه مر بعدة مدن، بورويبة يقول : أنّ عددها 20 عشرون ومن بينها ثلاث هامة من ناحية العمران وكذلك من ناحية الحوادث التي عرفها فيها ابن ت، وهذه المدن الثلاثة هي الونشريس وقد التقى فيها بالبشير الونشريسي معه مثل ما فعل بعبد المؤمن ببجاية ومدينة تلمسان وهي لم تكن ملك في ذلك الوقت ومدينة فاس التي سبق أن كانت عاصمة ملك في الأدارسة، وقد وقعت لابن تومرت فيها حوادث واصطدامات مع السلطة وأفراد الشعب مثل ما وقع له في بجاية.

ويذكر المؤرخون أنّ ابن تومرت مكث في هذه المدن الثلاثة مدة طويلة في حين أنّهم يذكرون إقامته بالمحطات الأخرى لمدة ليلة أو يومين أو أيام على الأكثر.

واستنتاجا لهذا نستطيع أن نقول أنّ إقامة ابن تومرت ببجاية لا يستبعد أ
تكون قد استغرقت سنة على الأقل، فقد يكون ابن تومرت قد دخل إلى بجاية
سنة 511 هـ كما يذكره ابن القطاف قبل شهر رمضان بكثير لأنّ المؤرخين
يذكرون أنّه نزل بمسجد الريحانة وبه شرع يلقي دروسا في الفقه والتوحيد
واجتمع حوله عدة علماء من بينهم القاضي عبد الرحمان بن الحاج الصنهاجي
وغيره، واشتهر أمر ابن تومرت في المدينة وأنّ هذه الشهرة عمت جميع
النواحي حتى وصلت مدينة تلمسان وأنّ ابن خلدون يقول أنّ عبد المؤمن سمع
بابن تومرت وهو شاب يطلب العلم في مدينة تلمسان وأنّه غادر هذه المدينة
ليتصل بابن تومرت في مدينة بجاية.

ولا يمكن أن تكون هذه الشهرة بهذه الدرجة إلاّ إذا كانت إقامة ابن
تومرت ببجاية قد مرت عليها عدة أشهر قبل شهر رمضان.

ونحن نعلم حسب المؤرخين أنّ الاضطراب الذي أحدثه ابن تومرت بمدينة
بجاية قد وقع في عيد الفطر، يعني في بداية شهر شوال وخروجه من المدينة إلى
ملالة قد يكون وقع هو الآخر في شهر شوال.

ثم يذكر المؤرخون أنّ ابن تومرت بدأ يدرس العلم في ملالة عدة أشهر
حتى أصبحت له عادات يرويها المؤرخون من بينها أنّه كان يجلس بعد الدرس

على الصخرة بجانب الطريق، ويقول ابن خلدون إنّ هذه الصخرة ما زالـــت معروفة في عهده (ابن خلدون).

ونحن نعلم كذلك أنّ الالتقاء بين عبد المؤمن وابن تومرت وقــع بملالـــة قرب بجاية وأنّ هذا اللقاء قد تم في وسط سنة 512 هـــ لأنّ خروج ابـــن تومرت من مدينة بجاية في شهر شوال لا يسمح بأن يكون وصول الجماعـــة التي جاء معها عبد المؤمن وهي ذاهبة إلى الحج كما هو معروف إلى بجايـــة في ذي القعدة أو ذي الحجة من سنة 511 هـــ والسفر إلى الحج كان يســـتغرق في ذلك الوقت أكثر من سنة ذهابا وإيابا فقد يكون اللقاء بين الرجلين قد تم في سنة 512 هـــ وهي السنة التي يذكرها ابن خلدون وهي التي خرج فيهـــا ابن تومرت وعبد المؤمن من بجاية.

وعلى هذا فمدة إقامة ابن تومرت ببجاية تستغرق لا محالة سنة كاملة وهي المدة التي تسمح لهذا الرجل أن يقوم بما يرويه عنه المؤرخون، فلقد غيّر المنكر ونصح الأمير وقام بالتدريس وأحدث الاضطرابات وخرج من المدينة واحتمى بقبيلة ورياغل بملالة التي دافعت عنه ووقفت أمام رغبة السلطان ودرس العلم والتوحيد وصارت له شهرة كبيرة وكوّن الجماعة الأولى التي اعتمد عليها في تأسيس الدولة الموحدية فيما بعد. إنّها أحداث كثيرة وهامة يستحق كل منها عروضا وشروحا طويلة ولكن نكتفي بذكر اثنين منها باختصار :

2- تغيير المنكر :

نعم يذكر المؤرخون جميعهم أنّ ابن تومرت يقوم بتغيير المنكر في كل بلد يترل به وهذا عملا بالحديث النبوي "*من رأى منكم منكرا فليغيره* ..." إلى آخر الحديث. والمعروف كذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام ونص عليها القرآن صراحة، فالقيام بهذه المهمة يعتبر فرضا بالنسبة للعلماء، وفي هذه الفترة من الزمان -يعني في القرن السادس الهجري- أعتقد أنّه يبدو من الأمور الطبيعية، كما يعني من جهة أخرى أنّ المنكر منتشر في البلد وأنّ الفساد عمّ مثل ما توحي به كتابة بعض المؤرخين وإنني أريد فقط أن أؤكد على الظاهرة.

وبالنسبة لبجاية عند إقامة ابن تومرت بها فالأرجح أن يكون عامة الناس متصفين بالوقار والتقوى وأنّ الفساد إن كان موجودا فهو قليل ومحصور في أماكن محددة، ومما لا شك فيه أن أن ابن تومرت أخذ يعض الناس في الدروس التي كان يلقيها ويعلمهم الدين الصحيح حسبما كان يراه هو كمصلح وعند من المؤرخين يذكرون أنّه وجد إقبالا كبيرا عند الجمهور مما يدل على أنّه . يصطدم بعامة الناس.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مدينة بجاية قد أسست سنة 460 وأنّها أصبحت عاصمة مملكة بني حماد سنة 483 هـ في عهد المنصور بن الأمير الناصر و هو

أنّ مدينة بجاية عندما كان ابن تومرت مقيما بها لم يكتمل عمرانها بعد إذ مر خمسون سنة على تأسيسها وأنّ العادات والتقاليد بها لم تكن راسخة وأنه كان يوجد بها خليط من السكان يختلف مستوى تدينهم وتحضرهم.

فبجاية في ذلك العهد مدينة جديدة ويذكر المؤرخون أنّ العزيز اكتمل بناياها وإنّ في عهده أخذ الأمن يستقر وكان العلماء يتناظرون في مجلسه حسب قول ابن خلدون.

فهي إذا مدينة في نمو ولا يستبعد أن يكون فيها حينئذ بعض الشذوذ انتبه إليها ابن تومرت ونهى عنها. ومما يلاحظ أنّ ابن خلدون -خلافا لبعض المؤرخين- لا يذكر اصطدام ابن تومرت بالجمهور وبأفراد الشعب وإنّما يقول غير بها المنكر وإذا اعتمدنا ابن خلدون نجد أنّ السبب في خروج ابن تومرت من مدينة بجاية والاجتماع ببني ورياغل بملالة (قرب بجاية) هو اصطدامه بالسلطان عبد العزيز والحقد الذي يكنه له بعض الحاشية، فيقول ابن خلدون أنّ العزيز هذا كان من المترفين فأغلظ ابن تومرت لاتباعه بالنكير، ويقول ابن خلدون في مكان آخر من تاريخه "أنّه سعى به (ابن تومرت) عند العزيز وأتمر به".

وعلى هذا قد يكون السبب الرئيسي هو حقد وحسد بعض الأفر
المتقربين إلى السلطة وهذا ليس بغريب إذ نجد ابن تومرت يواجه هذا النوع م
العداوة في جميع المراحل التي حط بها واحتك فيها بسلطان.

وأستغرب أن يكون ابن تومرت استاء من العزيز أو السلطان من ابـ
تومرت فالمؤرخون يذكرون أنّ العزيز وإن كان من المترفين كما يقول ابـ
خلدون كان يتقرب من العلماء ويجلهم ويستمع إليهم وأنّه هو بنفسه كان ذ
علم واسع متضلع في العلوم الدينية وأنّه تتلمذ بالقلعة على أبي الفضل بـ
النحوي المعروف بورعه وتقواه واتصاله بالإمام الغزالي الذي كان يشبه بـ
كذلك فلا غرابة حينئذ أن يكون العزيز متشبعا بمثل المبادئ والفلسفة التي جـ
بها ابن تومرت.

فكيف يمكن أن يصطدم الرجلان ويختلفان وهما على مذهب واحد
وأغلب الظن أنّ ابن تومرت أزعج حاشية السلطان فأمروا عليه كما يقول ا
خلدون وربما أحدثوا في المدينة بعض القلاقل ليثيروا غضب السلطان على ا
تومرت ويحملوه على الخروج من المدينة ؟.

وذلك ما فعل ابن تومرت، ولكن لم يخرج ابن تومرت من المدينة ليغادره
نهائيا كما فعل بالمدن التي مر بها من قبل، بل مكث بجوارها على بعد فرسخ
واحد في قرية ملالة التي لم تكن شيئا يذكر ولولا وجود ابن تومرت بها. وهـ

ظهر لنا جليا علاقة ابن تومرت ببجاية وأهلها وكذلك علاقته بالدولة الحمادية التي كانت في هذه الفترة بالذات أقوى دول المغرب نفوذا وعمرانا حضاريا، وهذه العلاقة كانت فرصة لابن تومرت في أن يبدأ في التفكير في ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية والتحضير لها جديا، ويروي المؤرخون أنه بعد التدريس كان يأتي في ملالة إلى قارعة الطريق ويجلس على صخر يتأمل وأنّ هذا الصخر بقي معروفا حتى عهد ابن خلدون يعني أكثر من قرنين من بعد ولعله ما زال إلى يومنا هذا إن بحثنا عنه نجده بدون شك، وهذه التأملات وهذا الجلوس خارج المسجد هو موقف الرجل السياسي الذي يظهر به ابن تومرت في ملالة.

3 – لقاؤه بعبد المؤمن :

وهنا يأتي لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن، وما من شك أنّ هذا اللقاء يكتسي أهمية كبيرة نظرا للأحداث التاريخية التي جاءت من بعد والتي تجعل من عبد المؤمن خليفة ابن تومرت، ولكن الباحث في يومنا هذا تبادره بعض التساؤلات في دراسته للموضوع، فأغلبية المؤرخين يذكرون أن ابن تومرت بدأ يفضل عبد المؤمن على غيره مذ لقائهما الأوّل بملالة وأنّه كان يفكر من هذه اللحظة في جعله خليفة له.

إنني لا أريد أن أقلل من أهمية عبد المؤمن بل التاريخ يثبت أهمية هذا الرجل العظيم، ولكن أريد فقط أن أضع رواية المؤرخين محل نقد وتشكك :

أ - يجب أن لا ننسى أن عمر عبد المؤمن عند هذا اللقاء لا يتجاوز 5: سنة وهي مرحلة انتقال بين الطفولة والشباب وبعيدة نوعا ما عن النضج وأن عمر ابن تومرت نفسه لا يتجاوز 30 سنة وهو من الكهولة والنضج، وكيف يفكر ابن تومرت في خليفته وهو في هذا السن ودولته لم تؤسس بعد، وأعتقد أنّه لم يفكر إلاّ في تعزيز جماعته وتقويتها.

ب - المؤرخون يهملون نوعا ما دور البشير الونشريسي، والمعروف أن ابن تومرت التقى بالونشريسي بعد لقائه بعبد المؤمن والونشريسي هو الذي قاد الهجوم الذي أمر به ابن تومرت ضد المرابطين في مراكش وأنّ عبد المؤمن شارك في الهجوم مع أصحاب ابن تومرت الآخرين وتحت قيادة الونشريسي الذي قتل كما هو معروف أثناء هذا الهجوم وهذا يدل على أنّ ابن تومرت كان يقدم الونشريسي على عبد المؤمن لأسباب ليس هذا محل ذكرها.

وإنّما المؤرخون غفلوا عن هذه الظاهرة لأنّ الكتابة عن الموحدين بدأت في عهد عبد المؤمن وكان لازما على المؤرخين وبالأسف أن يرووا ويثبتوا شرعيته على رأس الدولة، وكل هذا يحتاج إلى شروح مطولة.

ومهما يكن فإنّه لا يقلل بشيء الأهمية التي تكتسيها إقامة ابـــن تـــومرت بحاية وملالة فهي نقطة تحول كبيرة في حياة ابن تومرت وحياة عبد المؤمن، ولعلها تحتاج إلى عناية أكثر من طرف المؤرخين، وذلك ما أردته وراء حديثي هنا والسلام عليكم ورحمة الله.

2 ـ عبد المؤمن بن علي الكومي (496 هـ/1097 م ـ 558 هـ/1163 م) :

عبد المؤمن بن علي الكومي خليفة ابن تومرت مؤسس حركة الموحـــدين في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي وهو أحد الرجال العظام في تاريخ المغرب، تمكن من توحيده من طـــرابلس إلى البحـــر المحـــيط وأوقف زحف المسيحيين في الأندلس.

ولد عبد المؤمن بن علي بقرية تاغرة قرب مدينة ندرومة في قبيلة كوميـــة، في سنة 496 هــ/1097 م حسب ما يرويه الكثير من المؤرخين، ولقد وهبه الله قوة في الجسم وجمالا في الصورة مما جعله يثير الانتباه ويلتفت الناس إليـــه ونشأ حوله أحاديث تكاد تكون أقرب إلى الخرافات، مثل ما يروى أنّه عندما كان طفلا صغيرا تركته أمه تحت شجرة وهو نائم فجاء إليه جمع من النحـــل فحام حوله وأظله من الشمس ثم ذهب عنه دون أن يلحق به أذى.

وقد عاش عبد المؤمن مع أبويه وتعلم القرآن ومبادئ العربية والفقه مثل م
كان جاريا به في وقته، وعندما بلغ الخامسة عشر من عمره التحــق بمدينــ
تلمسان حيث واصل دراسته ومنها انتقل إلى مدينة بجاية صحبة عمه الــذي
كان قاصدا الحج، غير أنّه في بجاية ذهب لزيارة ابن تومرت الذي كان يدرس
بقرية ملالة على بعد ستة كيلومترات من المدينة والذي كان صيته شــائعا في
جميع المغرب الأقصى، ومن ذلك الحين تلازم الرجلان. وبعد اشهر من الإقام
بملالة صحب عبد المؤمن ابن تومرت وجماعته في طريقهم إلى تنملال بالمغرب
فمرت الجماعة بالونشريس وتلمسان وفاس ومكناس ومراكش ووصــلت إلى
السوس بقرية ابن تومرت سنة 515 هــ/1121 م، وبدأ ابن تومرت يــنظ
حركته وينشر دعوته وكان عبد المؤمن في كل هذا يلعب دورا مرموقا فقــ
كان من بين المجموعة الأولى المقربين إلى ابن تــومرت والمعروفــة بمجموعــ
العشرة التي كان ابن تومرت يستشيرها في جميع الأمور.

وفي سنة 533 هــ/1129 م قرر ابن تومرت أن يوجه غزوة ضد دولــ
المرابطين في مقر عاصمتهم بمراكش، فوضع الجــيش تحــت إمــارة البشــ
الونشريسي وشارك في الهجوم جميع أصحاب ابن تومرت ومن بينــهم عبــ
المؤمن، غير أنّ هذه الغزوة لم تنجح وتكبد جيش الموحدين خسارة كــبرى

قمات البشير الونشريسي وعدد كبير من أصحاب ابن تومرت ونجا عبد المؤمن ولم تصبه إلاّ جروح خفيفة.

وكانت هذه النكبة أليمة في نفوس الموحدين وأرغمت ابن تـــومرت أن يعيد تنظيمه ويعزز قوته غير أنّه لم يلبث إلاّ بعض أشهر فوافته المنيــة وكـــان ذلك سنة 524 هـــ/ 1130 فاجتمع مجلس العشرة أو ما بقي منهم وكـــان منهم : عبد المؤمن وأبو حفص وقرر إخفاء موت ابن تومرت ولم يعلن عنها إلاّ بعد مضي ثلاث سنوات واقترن هذا الإعلان ببيعة عبد المؤمن خليفة لابن تومرت ويرى جميع المؤرخين أنّ الاتفاق قد تم حقيقة حول عبد المؤمن نظـــرا لمكانته عند ابن تومرت وكذلك لكونه لا يميل إلى عصبية معينة.

وكان عبد المؤمن صغير السن نسبيا عندما تولى الخلافـــة إذ لم يتجـــاوز الثلاثين من عمره واستطاع بذكائه في التنظيم المحكم عسكريا ومدنيا أن يبعث من جديد حركة الموحدين وأن ينتصر على جميع أعداءه وأن يوحد المغـــرب كله تحت كلمته.

ولقد قرر في البداية أن يتغلب على دولة المرابطين وتفادى أن يواجهها في مقرها بمراكش مثل ما فعل ابن تومرت فحاول أن يعزلها فأخذ يستولي علـــى القرى الجبلية من الشمال في مسيرة تاريخية أدت به إلى مدينة ســـبتة ثم حـــتى ندرومة وتلمسان ووهران حيث التقى بجيش المرابطين تحت قيادة الخليفة الذي

مات بعد المعركة، ثم من وهران اتجه عبد المؤمن نحو الغرب فاستولى على مكناس ثم على فاس وبعد ذلك جاء إلى مراكش ويدخلها نهائيا سنة 541 هـ/1147 م.

ولقد استمرت هذه الحرب أربعة عشر سنة واستطاع عبد المؤمن من خلالها أن يقضي تماما على نفوذ المرابطين وأن يثبت عرشه وسلطته، وهذا الانتصار جعله يطمئن إلى نفسه ويوجد جهوده لتعزيز قوة الدولة الناشئة فلم يتردد في أن يقمع ثورة قام بها أخو ابن تورمت أن يطهر صفوفه ممن يكنون له العداء، ثم استقر بمدينة مراكش وأعاد بناءها وأنجز جامع الكتيبة الذي ما زال عامرا إلى يومنا.

وفي سنة 546 هـ/1151 م نهض من جديد ليغزو دولة بني حماد في بجاية فاتجه أولا نحو الشمال ليوهم أنّه يقصد الأندلس ثم فجأة غير اتجاهه نحو الشرق فاستولى على مدينة الجزائر ثم بسرعة وصل قرب بجاية ودخلها تقريبا بدون قتال ثم التفت إلى القلعة فتغلب عليها ومنها طارد الهلاليين الذين كانوا يعيشون في البوادي حتى قضى عليهم وشرد جموعهم.

وفي نفس السنة رجع إلى مراكش ومنها أرسل الجيوش إلى الأندلس ليفتح من جديد جميع الثغور التي استولى عليها المسيحيون، غير أنّ عبد المؤمن استقر بمراكش ولمدة ثمانية سنين من 546 هـ/1151 م إلى 554 هـ/1159 م.

كرس جهوده في تنظيم مملكته في جميع الميادين، فتخلى أولا عن الأنظمة التي وضعها ابن تومرت ثم جعل الملك وراثيا حيث عين ابنه خلفا له وعـــين مــن جهة أخرى جميع أولاده وبعضا من أقاربه على رأس الولايات وطلب من أبي حفص وهو آخر من بقي من مجلس العشرة أن يبقى معه ليستشيره في جميـــع الأمور، وأعطى دفعا قويا للنشاط الاقتصادي والمعماري والثقافي بصفة عامة.

وفي سنة 554 هـ/1159 م استأنف جهاده وتوجه مباشرة نحو الشرق للقضاء على دولة الزيريين التي بلغت من الضعف أن أصبحت مملكتها موزعة بين الهلاليين والنورمانديين فاستولى أولا على تونس ثم أخرج النورمانديين من جميع الموانئ التي استولوا عليها ثم شتت الهلاليين المتـــبقين وأعـــاد الهـــدوء والطمأنينة إلى جميع إفريقيا وأصبح المغرب كله تحت سلطة عبد المؤمن.

وفي سنة 557 هـ قرر أن يجهز جيشا قويا ليعبر إلى الأندلس، فاســـتقر أولا بالرباط قرب سلا وبنى بها مسجدا ومازالت آثاره موجودة إلى يومنا، ثم نزل بالأندلس وأخذ يعزز مواقعه غير أنّه فوجئ بمرض ألم به اضطره إلى العودة إلى سلا حيث وافته المنية وكان ذلك سنة 558 هـ/1163 م، وخلفه ابنـــه يوسف على عرش لم يعرف المغرب أوسع ولا أقوى منه قبله وبعده.

الفصل الخامس

الزّبانيون

1 ـ يغمراسن بن زيان

يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد هو مؤسس دولة بني عبد الوادي أي الزيانيين التي ملكت المغرب الأوسط من سنة 633 هـ/1236 م إلى سنة 957 هـ/1550 م، وكان مقرها بتلمسان وينتمي يغمراسن وهي كلمة بربرية ينطق به بكسر الياء وفتح العين، إلى قبيلة بني عبد الوادي الزناتية وكانت هذه القبيلة تجول ما بين تلمسان ونهر الملوك ولم يكن لها شأن يذكر حتى ظهور الموحدين فناصرتهم وعززت صفوفهم فكافؤها بالاعتراف لها بالسلطة على جميع الناحية التي كانت تجوب فيها وأول من أخذ هذه السلطة هو زكدان بن زيان بمساعدة أخيه يغمراسن..

وفي سنة 633 هـ/1236 م قتل زكدان في إحدى المعارك التي كان يخوضها ضد منافسيه وخلفه في الحكم أخوه يغمراسن الذي لم يكن يبلغ من العمر أكثر من 30 سنة وكان ليغمراسن علاقة ودّ وصداقة مع الخليفة الموحدي الرشيد، فقام يغمراسن حينئذ بمواصلة حروبه ضد منافسيه من إخوانه الزناتيين خصوصا بني راشد وبني توجين حتى استتب له الأمر من الناحية

الشرقية ولكن هذه الانتصارات أثارت تخوفات الدولة الحفصية الناشئة في تونس وكذلك تخوفات الموحدين وبعدهم المرينيين في فاس واستطاع يغمراسن أن يواجه هذه التخوفات بكل حذاقة مما جعله يعيش في توازن مستمر بين الشرق والغرب يميل أحيانا إلى هذا وأحيانا أخرى إلى ذلك حتى تمكن من إرساء أسس متينة انبنت عليها دولة قوية استمر ملكها أكثر من ثلاثة قرون. وفي سنة 639 هـ لم يطمئن أبو زكرياء الحفصي من موقف يغمراسن فزحف إليه بجيوش من بني راشد وبني توجين إلاّ أنّ يغمراسن امتنع عن المواجهة وفضل إخلاء مدينة تلمسان والخروج منها إلى الصحراء بالجنوب من المدينة ولم يلبث أبو زكرياء أن فاوض يغمراسن وانسحب من تلمسان فدخلها يغمراسن من جديد.

وفي سنة 646 هـ استاءت علاقته بالخليفة السعيد الموحدي، فجمع هذا الأخير الجموع وتوجه إلى يغمّراسن ولم يجد يغمراسن بد من الخروج من مدينة تلمسان وفعل ذلك اقتداء بالخطة التي سلكها مع أبي زكرياء الحفصي غير أنّ في هذه المرة شاءت الأقدار أن يكون اللقاء في خروجه بجيش السعيد فوقع الاقتتال بينهما وقتل إثرها الخليفة الموحدي ويشهد التاريخ بعلوّ همة يغمراسن في هذه الواقعة إذ أخذ جثة الخليفة بكل وقار وحمله إلى تلمسان ودفنه في مقبرة "عباد" بسيدي بومدين واعتنى عناية كبيرة بزوجة الخليفة المقتول وأخته فأرجعهما إلى مقر الخلافة الموحدية.

وابتداء من هذه السنة 646 هـ استقل يغمراسن كلية عن الموحدين وأخذ يعزز جيشه ويوطد أركان إدارة الدولة، كما أنّه أخذ يوسع في المدينة ويشيّد القصور والمساجد ويعطي دفعا قويا للنشاط الاقتصادي والثقافي حتى صارت مدينة تلمسان من أمهات البلدان التي يقصدها التجار والعلماء والفقهاء وأصحاب الصناعات ونالت شهرة واسعة.

وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري عرف المغرب تغييرات كثيرة وتعرضت دولة الموحدين وظهرت دولة بني مرين ولم تكن علاقة يغمراسن بهذه القبيلة حسنة من قبل فكثرت حروبه معهم رغم محاولاته الكثيرة بإبرام اتفاقات معهم ولكن بدون جدوى فخسر عدة معارك ولكنه تحصن بمدينة تلمسان فلم يستطع المرينيون التغلب عليه والاستيلاء على مدينته.

وهذه العلاقات السيئة مع المرينيين جعلته يتجه إلى الحفصيين ويوطد علاقته معهم ويناصرهم في حروبهم ضد المرينيين، وما انفكت علاقته هذه مع الحفصيين تتوطد حتى قرّر إبرام عقد زواج لابنه عثمان مع بنت إبراهيم بن عبد الواحد الحفصي ووقع الاقتران بمدينة تونس وعند رجوعه من هذا الحفل وقعت له بعض الحروب مع بني توجين ثم مرض مرضا شديدا وتوفي بالشلف وحمل إلى مدينة تلمسان وبها دفن.

وما من شك أنّ يغمراسن يعتبر من الملوك العظام الذين عرفهم المغرب الأوسط ويعرف بالذكاء والحذق والصرامة في نفس الوقت ويروى أنّه قال عندما ذكر أمامه انتسابه إلى الرسول ﷺ: "إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأمّا الدنيا فإنّما نلناها بسيوفنا".

2 ـ أبو حمو موسى بن أبي يعقوب (723 هـ/1323م ـ 791 هـ/1389 م) :

هو أبو حمو موسى بن أبي يعقوب من ملوك بني عبد الوادي الذين ملكوا تلمسان من سنة 633 هـ إلى 957 هـ (1236-1550 م)، وقد اعتلى أبو حمو العرش بعد أن ضيع أسلافه الملك مرتين إثر الهجومات التي قامت بها الدولة المرينية بفاس على مدينة تلمسان، وبفضل أبي حمو استرجعت الدولة الزيانية بتلمسان مجدها واستقرارها حتى نهايتها سنة 957 هـ/1550 م.

لقد ولد أبو حمو (الثاني) بالأندلس سنة 723 هـ/1323 م حيث كان والداه يقيمان ولكنهما انتقلا من بعد إلى تلمسان ونشأ أبو حمو في هذه المدينة وبها تربى وتفقه وترعرع، وعندما استولى المرينيون على مدينة تلمسان سنة 753 هـ/1352 م فر أبو حمو من المدينة والتحق بتونس ووجد عند الحفصيين الذين كانوا يملكون هذه الناحية كل الحفاوة والترحيب والإعانة المادية الضرورية لاسترجاع المملكة التي ضيعها أعمامه.

وفي سنة 760 هـ تمكن من الدخول إلى تلمسان والاستيلاء على عرش
بني عبد الوادي وهو الملك السابع منهم. وبفضل ثقافته وأدبه وقدرته في
التنظيم استطاع أن يرسي ويثبت قواعد هذه المملكة وأن يجعل من مدينة
تلمسان مدينة إشعاع للعلم والمعرفة في المغرب كله.

وفي سنة 772 هـ/1370 م هجمت عليه الجيوش المرينية وأرغمته على
الخروج من مدينته واللجوء إلى الجنوب ولكن بعد سنتين من هذا الهجوم
استرجع قواه وأخرج المرينيين من المدينة واستقر بها من جديد وقام بتشييد
المباني وبالإكثار من العمران وفي هذه الفترة التحق به الأخوان ابن خلدون.
ومكث يحي ابن خلدون يتولى شؤون ديوانه حتى وفاته سنة 780 هـ/1378
وفي السنوات الأخيرة من ملكه عرف أبو حمو مزاحمة قوية من طرف ابنه أبي
تاشفين الذي لم يرعو من التحالف مع الدولة المرينية ومن الاستعانة بهم
للهجوم على أبيه في مدينة تلمسان، وفي المعركة التي نشبت قتل أبو حمو
791 هـ/1389 م) واستولى على العرش ابنه أبو تاشفين وقد ترك لنا أبو
حمو كتابه حول سياسة الملك بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك" قام
بتقديمه ونشره الأستاذ عبد الحميد حجيات.

الفصل السادس

التجربة الديموقراطية في الإسلام

3 - التجربة الإسلامية

1 - مفهوم الديمقراطية :

لغويا فإنّ كلمة الديمقراطية دخيلة على اللغة العربية مثل كلمة "الجغرافية" و"الفلسفة"، وخلافا لهاتين الكلمتين فهي حديثة لم يستعملها العرب إلاّ منذ زمان قصير ولذا فهي لم تستقر بعد ويحاول البعض استبدالها ومفهومها يبقى مضطربا نوعا ما فمن حيث اشتقاقها اللفظي معناها "حكومة الشعب" أو سيادة الشعب أو اختياره الحر لمن يتولى شؤونه ويتلوى أمره انطلاقا من هذا المفهوم اللفظي يتبين أنّ المفهوم الذي تحمله كلمة الديمقراطية هو مفهوم سياسي بالدرجة الأولى ويمكننا أن نحدده إذا أخذناه بالمقارنة مع المفاهيم التي يمكن مقارنتها بالديمقراطية و هي مفهوم الديكتاتورية ومفهوم الملكية.

فالديكتاتورية هي حكومة الفرد المستبد، فهي نقيضة الديمقراطية لأنها تتنافى مع سيادة الشعب والملكية هي حكومة الفرد بالوراثة وهي تختلف عن الديمقراطية لأنها هي كذلك تنفي سيادة الشعب، فهذه المفاهيم الثلاثة تدل في الحقيقة على الأنظمة السياسية التي أوجدها الإنسان فوق الأرض منذ أن تكونت المجتمعات، فالنظام السياسي يكون حكما ديكتاتوريا أو حكما ملكيا ديمقراطيا وجميع الأنماط

الأخرى تدخل في طي هذه الأنظمة الثلاثة، فالديمقراطية إذا هي نظام سياسي معين تكون السيادة فيه للشعب فليست هي مذهبا أو إيديولوجية فالمذاهب والإيديولوجيات تنشط وتتحرك ضمن النظام الديمقراطي والديمقراطية تتميز بأشياء أذكر منها :

1 - فهي تستلزم ضمان الحريات العامة والحريات الشخصية، فالحرية هي قوامها وبدونها لا يمكن أن توجد وهو ما يفرقها عن الأنظمة السياسية الأخرى التي لا تضمن هذه الحريات.

2 - الديمقراطية تفرض أن يكون الفصل بين السلطات يعني السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية لأنّ الجمع بين هذه السلطات الثلاثة في جهة واحدة يؤدي لا محالة إلى نقيض الديمقراطية أي الديكتاتورية.

3 - كما أنّ الديمقراطية تتجسد في المجتمع بطريق ومناهج مختلفة تتكيف وتتغير مع طبيعة المجتمع وثقافة العامة وهذه الطرق والمناهج هي التي تعطي طابعا خاصا لأنواع الديمقراطية التي يعرفها العالم اليوم من حيث الدستور وقانون الانتخابات وغير ذلك مما يجعل نوع الديمقراطية يتطور ويتغير حتى داخل بلد واحد.

4 - وهذه الظاهرة تفرض علينا أنّه ليس هناك نوع مثالي للديمقراطية[1] بل أكثر من هذا فإنّ الديمقراطية قد تظهر في بلد ما فتبدو عرجاء ثم تنمو وتستقيم وقد تختفي أحيانا ثم تعود، وهذا ما يشهد به تاريخ البلدان وما نشهده اليوم في عدة بلدان.

واسمحوا لي قبل أن أتعرض للتجربة الديمقراطية في الإسلام أن أقدم لكم تحليلا موجزا عن التجربة الديمقراطية في غير الإسلام وأقصد بذلك التجربة الديمقراطية في اليونان.

2 - التجربة الديمقراطية في اليونان :

يكاد يجمع المؤرخون على أن الديمقراطية ظهرت باليونان وهي التجربة الأولى في المجتمع البشري. واليونان عرفت أنظمة سياسية مختلفة ومن بينها النظام الديمقراطي في فترة معينة من تاريخها ويتميّز النظام الديمقراطي اليوناني بكونه :

ظهر في مجتمع صغير وضيق يكاد ينحصر في مدينة أثينا ويقول المؤرخون أنّ مدينة أثينا وضواحيها كانت تأوي حوالي 600.000 ساكن، بجميع الطبقات ونحن نعرف أنّ السكان في اليونان كانوا موزعين على ثلاث طبقات، الأولى هي طبقة المواطنين والثانية هي طبقة الأجانب والثالثة هي طبقة العبيد، أما الطبقة الأولى يعني طبقة

المواطنين فكان عددها لا يتجاوز 120.000 نسمة بما فيهم النساء والأطفال. وكانت هذه الطبقة هي الوحيدة المعنية بالديمقراطية دون غيرها يعني هي التي تختار حكامها وهي التي يمكنها أن تتولى شؤون البلاد وهذه الطبقة كانت تفرق من جهة أخرى بين الرجال والنساء، فالمجتمع اليوناني كان يعتبر المرأة بضاعة للرجال، وهي تحت إرادتهم وليس لها أي حق وقدرة وبهذا فهي لا تشارك في تسيير البلاد ولا في اختيار الحكام(2) وكذلك هو الأمر بالنسبة للعبيد الذين ليس لهم الحق في اختيار الحكام وبهذا يصبح النظام الديمقراطي اليوناني أعرجا ضيقا كما أشرت إلى ذلك فهو يشبه النظام الاستعماري الذي كان موجودا بالجزائر قبل الاستقلال .

ويتبين لنا حينئذ أنّ الديمقراطية اليونانية لا يمكن أن تكون مثالا يقتدى به، فهي وإن كانت تقر مبدأ الاختيار الحر وتفصل بين السلطات، إلاّ أنها مبنية على التمييز وعدم المساواة بين السكان فهي تنبذ وتهضم حقوق عدد كبير من السكان المتكون من النساء والعبيد، الذين يشاركون بصفة فعالة في تطوير المجتمع وضمان بقائه.

ورغم هذا العيب الكبير فإنّ وجود هذا النظام الديمقراطي في المجتمع اليوناني لأوّل مرة في تطور المجتمع البشري يعد خطوة هامة وتجربة مفيدة للأنظمة السياسية.

3 – التجربة الديمقراطية في الإسلام :

إنني أتعرض لهذه النقطة من الناحية التاريخية ولا أتعرض لها من الناحية العقائدية ولا من الناحية الفقهية ولا من الناحية الأصولية (أصول الدين).

أولا يجب أن نفرق بين الإسلام والمسلمين، فالدين الإسلامي بقواعده ومبادئه العامة وبمرجعيته هو ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أما المسلمون فهم الذين أوجدوا الحضارة الإسلامية انطلاقا من الدين الإسلامي، بما في هذه الحضارة من المحاسن والمساوئ وبما فيها من العظمة والنقائص.

والدين الإسلامي الحنيف لم يذكر الديمقراطية كنظام سياسي، ففترة الرسول ﷺ قد تعتبر فترة استثنائية لوجود الرسول ﷺ بين المسلمين فلا نستطيع أن نقول أنّه كان يوجد نظام سياسي بل هناك وضع خاص كان الرسول ﷺ فيه المحور الأساسي مبعوثا من الله سبحانه وتعالى ليبلغ رسالة سماوية هي القرآن الكريم.

وما يؤيدني في هذا أنّ السنة النبوية لا تتضمن إشارة واحدة إلى نظام سياسي معين ولا تشير من ناحية أخرى إلى من يخلف الرسول

بعد وفاته ولا الكيفية التي تكون عليها هذه الخلافة، كما أنّه ليست هناك إشارة واحدة إلى نوعية الحكم[3] نعم لقد وردت في القرآن آيات تؤكد على أنّ الحكم لله وحده وآيات أخرى تشير إلى الشورى ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ أو إلى طاعة أولي الأمر ﴿**وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم**﴾.

ولكن المتدبر لهذه الآيات الكريمات وخصوصا لأسباب نزولها يرى أنّها لا تشير إلى نظام سياسي معين بل تبين معاملة الرسول ﷺ لأصحابه وللمسلمين عامة، وتذكر بعض صفات هؤلاء المسلمين وقد اتخذ بعض المفسرين في العصر الحاضر من هذه الآيات قاعدة لبناء نظام شوري ديمقراطي وهي مبادرة مستحسنة في نظري ولكنها ما زالت لم تتبلور في نظرية مكتملة لنظام سياسي معين[4]. ومن جهة أخرى فمن المؤكد أنّ الدين الإسلامي الحنيف قد وضع القواعد الأساسية لتجسيد بعض المبادئ الديمقراطية :

1 - فهو لا يفرق بين الناس لأنهم كلهم عباد الله، فهو يخاطب جميع المسلمين والمسلمات وجميع المؤمنين والمؤمنات، لا فرق بين الرجل والمرأة ولا فرق بين الحر والعبد بل وضع منهجية لإخراج العبيد من عبوديتهم فهو بهذا يسوي بين الناس جميعا والمساواة هي قاعدة ديمقراطية.

2 - فهو يقر الحريات العامة والحريات الشخصية من خلال المسؤولية التي يحملها الإنسان طوعا كما أنّه حرّم قتل النفس وفرض احترام البيوت وأموال الناس، هذا هو الدين الإسلامي، أما الحضارة الإسلامية أي تنظيم المسلمين للمجتمع وعلاقتهم بالديمقراطية فإنّه يجب أن نلاحظ أنّ أربعة عشر قرنا مرت منذ وفاة الرسول ﷺ والمجتمع الإسلامي يميل أكثر فأكثر إلى نظام سياسي أشبه ما يكون بالنظام الديكتاتوري اللهم إذا استثنينا فترة الخلفاء الراشدين وبعض الفترات القصيرة مثل فترة عمر بن عبد العزيز[5] أو فترة ابن تومرت التي ترجع في الحقيقة إلى تقوى هاتين الشخصيتين.

ولكن هذا حكم مطلق يجب أن أوضحه أكثر.

أولا يجب أن نعترف أنّ النظام السياسي في المجتمع الإسلامي ألغى حرية الاختيار ونبذ سيدة الشعب وتنكر لها فهو يتأرجح ما بين النظام الملكي في الغالب والنظام الديكتاتوري أحيانا غير أنّه لم يتخلّ عن بعض المبادئ الديمقراطية التي أشرت إليها[6].

ومعنى هذا أنّ الدين الإسلامي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولا يستطيع أي مسلم حتى ولو كان خليفة أو مالكا أو متجبرا أن يخالف القرآن والسنة، فهما إطار تشريعي عام أو إن أردتم

دستور يخضع له جميع الناس، ولا يمكن المساس به، وهذا الوضع قد تمخض عنه نوع من النظام ليس بالنظام الملكي المطلق وليس بالنظام الديمقراطي المطلق فهو يشبه النظام الملكي الدستوري وهو يتميز :

بفصل السلطات وهي قاعدة أساسية في النظام الديمقراطي كما ذكرت فالسلطة التشريعية عند الفقهاء وليس للخليفة أو الملك أو السلطان أو الأمير أي دخل فيها. والسلطة القضائية هي بيد القضاة الذين وإن كانوا معينين من طرف السلطات الحاكمة فهم يطبقون القوانين الفقهية باجتهادهم الخاص[7]. والسلطة التنفيذية فهي بيد السلطة الحاكمة القائمة بالقوة من جيش وشرطة وأعوان إداريين.

و أحسن مثال يعطى لهذا الفصل هو موقف الإمام مالك بن أنس مع جعفر بن منصور الخليفة العباسي؛ فكان الخليفة يحترم مواقف مالك حتى لو كانت لا ترضيه وكان مالك يفتي حسب فهمه للقرآن والسنة بكل حرية.

.وقد روى ابن قتيبة في كتابه "الإمام والسياسة" أنّ الإمام مالك لما دعي من طرف الخليفة اغتسل وتطيّب ولما جلس عند الخليفة قال له : إني لأجد رائحة الحنوط عليك، قلت أجل لما نهي عنك ما نهي، وجاءني رسولك في الليل، ظننته القتل فاغتسلت وتطيبت ولبست

ثياب كفني، فقال أبو جعفر : سبحان الله ما كنت لأثلـــم الإســـلام وأسعى في نقضه أو ما تراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عائذا بالله مما قلت يا أبا عبد الله، انصرف إلى مصـــر راشـــدا مهـــديا وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك ولا يعدل بك مخلوقا، فقلت إن يجبرني أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعـــة وإن يخـــيرني أمـــير المؤمنين اخترت العافية، فقال ما كنت لأجبرك ولا أكرهـــك معافيـــا مكلوءا".

وهذا الحوار الذي وقع بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية في أعلى القمة يبين بصفة واضحة العلاقة التي كانت موجـــودة بينـــهما والمبنية على الفصل بينهما أولا وعلى احترام بعضهما البعض ثانيـــا، وعندما يقول أبو جعفر لمالك : سبحان الله ما كنت لأثلم الإســـلام وأسعى في نقضه" فهو يرى أنّ مالكا يمثل الإسلام وظيفته هي الدفاع عن الإسلام وحمايته.

نعم ! إنّ الحضارة الإسلامية أنشأت نظاما سياسيا يتميز بفصـــل السلطات وهي قاعدة أساسية في النظام الديمقراطي، غـــير أنّ هـــذه الحضارة لم تحترم ولم تطبق ما جاء به الإسلام من الضمانات للحريات العامة والحريات الشخصية ولم يعرف المجتمع الإسلامي أن يعطي قيمة للمسؤولية التي أعطيت للإنسان فوق الأرض ولم يعرف كذلك كيف

يجسد مبدأ الشورى ويحوله إلى نظام سياسي دائم وتجربة الخلفاء الراشدين من جهة وتجربة ابن تومرت من جهة أخرى أحسن برهان على ذلك :

1 – تجربة الخلفاء الراشدين :

تاريخيا فإنّ هذه الفترة التي تمتد ثلاثين سنة فترة تجريبية لتبلور مفهوم الشورى في المجتمع الإسلامي ولكنها انتهت بالفشل لأنّها لم تستطع أن تؤسس نظاما سياسيا مبنيا على الشورى بل آل الأمر إلى نقيض ذلك، ولكن المحاولات المختلفة التي وقعت في هذه الفترة تبرز إمكانية استخراج القواعد الأساسية للنظام الشوري، فخلافة أبي بكر جاءت بعد استشارة واسعة لجميع المسلمين، وخلافة عمر جاءت من تعيين أبي بكر له ولكن مع بيعة عامة المسلمين له.

و خلافة عثمان جاءت بعد تعيين مجلس شورى من جهة وبعد استطلاع عام لرأي المسلمين في أعضاء مجلس الشورى .

وخلافة علي جاءت بعد موافقة الأغلبية من المسلمين.

من خلال هذا الاستعراض السريع نتبين أنّ هذه الفترة استعملت تقريبا جميع المناهج والتقنيات التي تستعملها الديمقراطية المعاصرة ما عدا الاقتراع بواسطة الصناديق فهذه الفترة استعملت الاستشارة

العامة بمثابة الاستفتاء وقد دار النقاش حول فكرة "*منا أمير ومنكم أمير*" التي عدل عنها المسلمون باتفاق.

وكذلك لجأت إلى تأسيس مجلس استشارة وإن كان متكونا من ستة أعضاء فقط واستعملت كذلك الاستطلاع لمعرفة رأي المسلمين وهو ما قام به عبد الرحمن بن عوف عندما لم يستطع المجلس الاستشاري من الفصل في الاختيار بين علي وعثمان.

كما أنّ هذه الفترة لجأت إلى رأي الأغلبية عندما عارضت جماعة من المسلمين تولي الخلافة من طرف علي. إذن هناك استشارة واستطلاع وهناك مجلس وهناك أغلبية وهي كلها تقنيات يمكن لو جمعت أن تتبلور في نظام سياسي يكاد يكون ديمقراطيا.

ولكن التاريخ يروي لنا أنّ المجتمع الإسلامي نبذ هذه التجربة واختار نظاما شبيها بالنظام الديكتاتوري وأسس الملكية الوراثية مع الأمويين والعباسيين وغيرهم.

2 – تجربة ابن تومرت :

والتجربة الثانية التي أذكرها فهي خاصة بالمغرب الكبير وهي التجربة التي قام بها ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية، وهذه التجربة متعلقة بالمؤسسات الديمقراطية التي أنشأها هذا الإمام لتسيير شؤون

المسلمين ولتأسيس هذه الدولة كذلك، وهذه المؤسسات هي أولا المجلس العام الذي كان يسمى "أهل خمسين" لأنّه يتكون من خمسين عضوا، وثانيا مجلس "أهل الجماعة" المتكون من عشرة أعضاء من أصحاب المهدي المقربين إليه. وخصائص هذين المجلسين أنّهما :

1 - مجلسان سياسيان فدورهما سياسي أكثر منه ديني أو تشريعي، لأنّ القرار السياسي وتنفيذه كان يرجع إليهما بالدرجة الأولى.

2 - دام هذان المجلسان مدة طويلة ولعبا دورا كبيرا في تأسيس الدولة الموحدية وفي نقل الإمامة من ابن تومرت إلى عبد المؤمن بعد وفاة المهدي.

ما هي علاقة هذه التجربة بالديمقراطية ؟ :

أولا أشير إلى أنّ نوع هذه التجربة هي الوحيدة في الحضارة الإسلامية : إنشاء مجلس سياسي دائم، فهو يختلف عن المجلس الذي أنشأه عمر بن الخطاب عند وفاته لأنّ هذا المجلس كان ظرفيا لم يقم إلاّ بمهمة واحدة ثم زال.

ثانيا فإنّ طبيعة المجلس في الدولة الموحدية توحي بأنّ ابن تومرت لم يكن مستبدا بل كان يبني شرعيته على الثقة التي يمنحها له المجلسان، فمجلس "أهل الجماعة" كان بمثابة حكومة وزعت المهام التنفيذية على

العشرة حسب تخصصهم تحت رئاسة ابن تومرت، ومجلس "أهل الخمسين" كان بمثابة برلمان يجلس فيه الممثلون للقبائل التي ساندت ابن تومرت في بداية حركته بحيث نجد فيها قبائل من الجزائر الحالية مثل الونشريس و كومية و قبائل مصمودة في المغرب الأقصى وكذلك آخرون من تونس الحالية و مصر، و هذا التمثيل لم يكن صوريا أو شكليا فقط وإنما كان فعالا لأن هذا المجلس هو الذي كان يقرر التوجيه العام للدولة ويكفي أن نذكر أن هذا المجلس هو الذي اتخذ القرار بتعيين من يخلف ابن تومرت عند وفاته، وكان الاختلاف شديدا بين القبائل الممثلة في المجلس، وقد اتخذ القرار نهائيا بتعيين عبد المؤمن بن علي.

فحركة ابن تومرت كانت حركة شعبية انضمت إليها جماعات مختلفة وتكونت من خلال ذلك جبهة موحدة كان من الضروري أن تكون مفعمة بروح التشاور والتعاضد والتضامن تذكرني كثيرا بما قامت به جبهة التحرير الوطني أثناء الحرب التحريرية التي أنشأت هي كذلك مجلسا للثورة يضم الممثلين للجماعات المختلفة التي تساند الثورة وهيئة تنفيذية مصغرة تقوم بشؤون الثورة، بدون أن يكون الحكم مستبدا من جهة معينة.

غير أنّه يجب أن نلاحظ أنّ تجربة ابن تومرت زالت بوفاته وانقلب الحكم بسرعة إلى ملكية وراثية كما هو الشأن في الحضارة الإسلامية.

وفي الختام ألخص ما قلت :

1 - أنّ الدين الإسلامي لم يأت بنظام سياسي معين.

2 - إنّ الشورى مفهوم لم يتبلور بعد.

3 - أنّ التجربة الديمقراطية في الحضارة الإسلامية موجودة غير أنّها ضعيفة.

إنّ الثقافة الديمقراطية تكاد تكون غير موجودة في المجتمع الإسلامي هل يعني هذا أنّ الثقافة الديمقراطية لا يمكن أن توجد عند المسلمين ؟ هذا ادعاء باطل والأمثلة التي ذكرها تدل على عكس ذلك، ويبدو لي أنّ المهمة الأولى التي يجب أن نقوم بها هي أن نكون صرحاء مع أنفسنا عندما نتكلم عن تاريخنا، وأن ننظر إلى التجربة الديمقراطية التي يقوم بها الغرب بدون عقدة سواء كانت عقدة ضعف أو تكبر و نأخذ من هذه التجربة ما يتلاءم مع مجتمعنا.

هذا وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الهوامش :

1 - جاء في الموســـوعة العالميــة (Encyclopédia Universalis) : "ليســت الديمقراطية نموذجا عاما في إمكانه توفير الوسائل لإقامة نظام سياسي واجتماعي مقبول في جميع أوطان العالم فالديمقراطية لا يمكن أن توجد إلاّ حسب الوسط الذي تستقر فيه والذي تجسد طموحاته" وتضيف الموسوعة : "إنّ الديمقراطية هي وسيلة لإرساء الحرية ثم العــدل وأخيرا فهي وسيلة لمراقبة التطور الاقتصادي من طرف المجتمع"، هذا المفهوم هو المتــداول اليوم بين الأوساط السياسية في الغرب وأمريكا وهي خطوة أخرى اجتازتها الدول الغربية في تطوير المفهوم.

2 - يروى عن "كاطون القديم" وهو رجل سياسي روماني أنّه قال : "إنّ الزوج هو الذي يقاضي امرأته وسلطته في هذا الميدان لا حدود لها فهو يفعل ما يشاء".

3 - وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته في الفصل السادس والعشرين من الباب الثالث من الكتاب الأول : إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين وقد ذهب بعض الناس إلى أن مدرك وجوبه العقل وأنّ الاجتماع الذي وقع إنّما هو قضاء بحكم العقل فيه قالوا وإنما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر"

4 - يقول أبو الأعلى المودودي في كتابه "الحكومة الإسلامية" -ديوان المطبوعــات الجامعية - الجزائر، ص 172 - : "تعد الشورى في هذه الآية من أفضل صفات المــؤمنين على حين جاءت الشورى في سورة آل عمران بصيغة الأمر وعلى هذا فالشورى واحــدة من الدعامات الهامة التي أسس عليها طراز الحياة الإسلامية".

5 – قد جاء في مقدمة ابن خلدون "وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول إذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر : لو كان لي من الأمر شيء لوليته الخلافة ولو أراد أن يعهد إليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد"

6 – يقول ابن خلدون : "فقد تبين أنّ الخلافة قد وجدت بدون الملك أولا ثم التبست معانيها أو اختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة".

7 – يقول ابن خلدون : "وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه (يعني القضاء) بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم وأوّل من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء منه بالمدينة وولى شريحا بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء وهي مستوفاة ومنها "البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم ! ...".

المراجع الخاصة بالباب الأوّل :

- ابن عبد الحكم : فتوحات مصر وإفريقيا - الجزائر 1948.
- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة - الجزائر 1989.
- ابن خلدون : كتاب العبر، دار الكتاب بيروت 1967.
- ابن القوطية : فتوح الأندلس - مادريد 1926.
- ابن الأثير : الكامل - القاهرة 1938.
- البلاذوري : الفتوحات - القاهرة 1932.
- عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر – الجزائر 1972 .
- مبارك الميلي : تاريخ الجزائر – الجزائر 1976 .
- الزركلي : الإعلام - بيروت 1969.
- دائرة المعارف الإسلامية - القاهرة 1933.
- دوزي : تاريخ المسلمين بإسبانيا - ليد 1932.
- ليفي بروفانسال : تاريخ إسبانيا المسلمة - باريس 1950.

الباب الثاني

مواقف تاريخية

الفصل الأول

قضية المملكة العربية والمقراني

قضية المملكة العربية في الجزائر والمقراني

يذكر المؤرخون عدة أسباب تراكمت لتدفع المقراني إلى القيام بثورة عامة ضد السلطات الاستعمارية في الجزائر وليس هو دوري في هذا المقام لأذكر هذه الأسباب بالتعداد ولكني اخترت إحدى هذه الأسباب لأتعرض لها في هذه المناسبة الكريمة بنوع من التحليل وهي **"المملكة العربيـــة" Le Royaume arabe** وهي قضية ذكرها عدد كبير من المؤرخين وأثارت ضجة كـــبيرة وقتـــها في فرنسا وخصوصا لدى المعمرين الفرنسيين في الجزائر.

وإنني سأشرح القضية من خلال إجابتي عن أربعة أسئلة أطرحها أمـــامكم وهي :

1 - ما هي حقيقة القضية.

2 - ماذا يقصد منها ؟

3 - هل كان المقراني يؤمن بها ؟

4 - ما هي العبرة من هذه القضية ؟

1 - حقيقة هذه القضية :

الحق أنّ هذه القضية ليست إلاّ مجرد فكرة انحرفت إلى قانون تجسد فيما يعرف بسيناتوس كنسلت 22 أفريل 1863 (Senatus consulte).

أما الفكرة فقد يرجعها المؤرخون وينسبونها لإسماعيل أربان Ismaël Urbain وهو مستشار نابليون الثالث الفرنسي ومن المقربين إليه، وهذا شخص أبوه زنجي وأمه فرنسية وهو يحسن العربية اعتنق الإسلام ومكث طويلا بمصر والجزائر وخصوصا قسنطينة واقتنع بأنّ السياسة الاستعمارية في الجزائر على أسس غير سليمة وأنها ليست في فائدة فرنسا وأنّ البديل لها هو الاعتماد على المسلمين الجزائريين والحفاظ على شخصيتهم الدينية ومصالحهم المادية بالتعاون مع فرنسا.

وقد بذل أربان جهدا كبيرا للإشهار بأفكاره من خلال كتاباته في الصحف وكذلك في نشر كتب عديدةحول الموضوع، وقد وجد أذنا صاغية عند امبراطور فرنسا نابليون الثالث.

وكانت نزعة هذا الأخير ليبيرالية نوعا ما بالمقارنة مع من أسندت إليهم من مدنيين وعسكريين السياسة الفرنسية في الجزائر فكان يستمع كثيرا لأربان

حتى اقتنع بأفكار هذا الأخير وحاول أن يجسدها في مشروع سياسي حتى يتمكن من تطبيقها وفي 6 فبراير 1863 وجه نابليون الثالث رسالة إلى الوالي العام بالجزائر الماريشال بيليسي Pélissier يقول فيها صراحة "هذه هي سيدي الماريشال الطريق التي يجب أن تسلكها بكل جدة، وأنني أكرر -إنّ الجزائر ليست مستعمرة بأتم معنى الكلمة ولكن هي مملكة عربية لأهالي مثل الكولون- الحق في أن أقوم بحمايتهم إنني إمبراطور العرب كما أنني إمبراطور الفرنسيين".

ولا يسعني إلاّ أن أقول نظرا لهذه الصراحة أنّ فكرة المملكة العربية في الجزائر سياسة حقيقية كان المسؤول الأوّل في فرنسا يؤمن بها ويأمر بكل صرامة بتطبيقها، فالفكرة إذا ليست خيالا ولا مجرد ادعاء، وإنّما هي حقيقة تاريخية. وهنا نطرح السؤال الثاني ماذا يقصد بها ؟.

2 – ماذا يقصد بها ؟

وخصوصا لنا أن نتساءل هل كان نابليون الثالث يعطي لمفهوم المملكة جميع معطياتها السياسية والحق أنّ قراءة الرسالة لا توحي بهذا ولكنها تبدوا كخطوة أولى نحو هذا الهدف، فهي ترمي :

- إلى إقناع العرب أنّ فرنسا لم تأت إلى الجزائر لتقمعهم أو لتسلب ممتلكاتهم ولكن لتساعدهم على الاطلاع والاستفادة مـــن مزايـــا الحضارة.

- إلى الاستنكار بسياسة التطويق Cantonnement التي كانت تطبقها فرنسا في الجزائر والـــتي اســـتبدلها بسياســـة تحديـــد الملكيـــة Constitution de la propriété التي ترمي إلى الاعتـــراف بملكيـــة الأهالي لأرضهم والحفاظ عليها وردع الكولون على الاســـتيلاء عليها.

- إلى توزيع المَهام بين العرب والكولون، فالعرب يقومون باستعمار الأراضي وبترقية تربية المواشي، والكولون يقومـــون باســـتعمار الغابات والمعادِن وإنشاء المصانع.

هذا هو ملخص الرسالة، فهي إذا لا تتضمن إجراءات سياســـية لإبـــراز مفهوم المملكة ولكن تتضمن إجراءات ترمي إلى إبراز شخصيات الأعـــراش والاعتراف بأراضيهم.

وهنا نجد نابليون يدرك صعوبات تطبيق سياسته، ولذا فهو يقرر السفر إلى لجزائر والمكوث بها أياما عديدة والاتصال بالأعيان مـــن شـــيوخ الأعـــراش

وهكذا تظهر علاقته بمحمد المقراني وتنشأ بينهما اتصالات مستمرة إثرها قام محمد المقراني بزيارات عديدة إلى فرنسا وبحضور الحفلات التي كان يقيمها نابليون الثالث بـ"كومبيان" Compiègne.

ونظرا لهذه الاتصالات يزعم البعض أنّ محمد المقراني كان المعني بالمملكة العربية التي كان يرمي إنشاءها نابليون الثالث.

3 - هل كان المقراني يؤمن بها ؟

والمعلوم أنّ أحمد المقراني وهو أبو محمد كان يلقب بخليفة ***مجانة*** وكانت سلطته تمتد إلى فرجيوة شرقا والمدية غربا وعند وفاته سنة 1859 عينت السلطات الاستعمارية ابنه محمد خليفة له ولكن بتسميته باشاغا بدل خليفة، وهنا يجب أن لا ننسى أنّ عائلة المقراني تنتمي إلى ملوك بني حماد، مما يجعل محمد المقراني مع ما عرف له من ذكاء وفطنة يتصرف تصرف الملوك ويجعل نابليون الثالث والعسكريين الفرنسيين في الجزائر يضعون ثقتهم فيه.

ومما لا شك فيه أنّ محمد المقراني كان حذرا مع السلطات الاستعمارية نظرا للتناقضات والتقلبات التي تعتريها ولهذا ليس لنا دليل قاطع أنّه كان يؤمن بالمملكة العربية ولكن مواقفه ونشاطه تدل على أنّه قد وضع نوعا ما ثقته في

نابليون الثالث وفي بعض العسكريين في الجزائر وأنّه كان متخوفا جدا من الحكم المدني الفرنسي ومن الكولون الفرنسيين.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّه كان يبذل جهده لتوحيد الصف الجزائري كما يشهد بذلك الاجتماع الذي وقع *بأقبو* والذي حضره المقراني وبمبادرة من العسكريين الفرنسيين والذي وفق فيه بين *الحداد وبن علي الشريف*، وكما تشهد بذلك علاقته كذلك مع *بوعكاز* في شرق الجزائر. وكل هذا يوحي أن المقراني كان يتمتع بسمعة و نفوذ كبيرين في الجزء الشرقي من الجزائر.

و هذا ما يفسر انتشار الثورة التي قام بها بسرعة كبيرة في جميع هذه النواحي التي كانت تحت نفوذه، ومهما يكن من الأمر فإنّ من الأسباب المباشرة التي جعلت المقراني يعلن عن الثورة هو تيقنه من أنّ الحكم في فرنسا وإقامة الحكم المدني في الجزائر تحت نفوذ الكولون هو في نفس الوقت الإعلان عن موت فكرة المملكة العربية والكيان القومي الجزائري. ومن هذا نستطيع أن نستخرج العبرة من هذا الحدث الكبير .

4) العبرة من هذه القضية :

1- إنّ الاستعمار يتغذى ويتقوى من تناقضاته، فمحاولة نابليون الثالث أدت إلى سياسة القمع والإبادة التي عرفتها الجزائر بعد 1871.

2- من الممكن أن نجعل مقارنة بين نابليون الثالث ودي غول، فالأوّل لم يستطع أن يتغلب على الكولون لأنّه انهزم في حربه ضد الألمان في حين أن دي غول تغلب على الكولون لأنّه كان متوجا بمقاومته للألمان.

3 - من الممكن كذلك أن نجعل مقارنة بين ما أدى بالمقراني إلى الثورة بما يجري اليوم في فلسطين، فقضية الاستيطان اليوم في فلسطين هي قضية التطويق بالأمس في الجزائر نرجو من إخواننا في فلسطين أن يدرسوا هذه الفترة فهي تجربة مفيدة لهم.

وهذا نص الرسالة التي بعث بها نابليون الثالث إلى والي الجزائر :

باريس 4 فبراير 1863،

سيدي الماريشال فإنّ مجلس الشيوخ سيناقش مشروعا يبين القواعد الأساسية لدستور الجزائر وقبل هذه المناقشة فإنني أرى أنّه من الأهمية بمكان أن نزيل جميع المخاوف التي أثيرت حول تأسيس المملكة العربية، عندما تمكن النظام الفرنسي من احتلال الجزائر فإنّه وعد العرب أن يحترم دينهم وأملاكهم، وإنّ هذا الالتزام بالنسبة لنا ما زال جاريا وإنّه لمسألة شرفية بالنسبة لنا كما فعلته مع الأمير عبد القادر أن ألتزم بما وعدت به الحكومات التي سبقت.

هذه هي الطريق التي يجب أن نسلكها بكل جد وأكرر وأعيد فإن الجزائر ليست مستعمرة بأتّم معنى الكلمة ولكنها مملكة عربية وإنّ للأهالي مثلهم مثل الكولون الحق في أن أقوم بحمايتهم وإنني إمبراطور العرب كما أنني إمبراطور الفرنسيين.

الفصل الثاني

تأسيس نجم شمال إفريقيا

تأسيس نجم شمال إفريقيا والأمير خالد *

أشكر مؤسسة أحمد ورابح عسلة على دعوهم لي للمشاركة في هذه الندوة حول نجم شمال إفريقيا التي أتمنى لها كل النجاح.

ومشاركتي تكون بموضوع عنوانه : "تأسيس نجم شمال إفريقيا والأمير خالد".

والمعلوم أنّ النقاش ما زال قائما حول تأسيس "النجم" ورغم الدراسات العلمية التي قام بها الأستاذ قداش وأجرون وبوقسة وغيرهم حول هذه النقطة فإنّ الأمر لم يحسم بعد وما زالت الأقوال متضاربة، فهناك من ينسب هذا التأسيس إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وهناك من ينسبه إلى الأمير خالد أو بالضبط إلى جماعته، وهناك من ينسبه إلى مصالي الحاج.

والحق أنّ الجهات الثلاثة على حق لأنّ التحري العلمي للحقيقة يفرض ذلك، ومعنى هذا أنّ الجهات الثلاثة التي ذكرها قد سعت وبذلت جهودا

* محاضرة ألقيت في ندوة نظمتها "مؤسسة عسلة" في جانفي 2001 بالجزائر.

تظافرت هذه الجهود وتوّجت بوجود هذا التنظيم السياسي الأصيل الذي قاد الشعب الجزائري إلى الاستقلال.

وعندما أقول هذا ليس من باب التوفيق بين الأقوال الثلاثة التي ذكرتها لأنّ هذا يتنافى مع الموضوعية التاريخية بل هذا نابع من الأحداث التاريخية التي تعرض الحقيقة وتفرض علينا أن نخضع لها و الأحداث التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع تملي علينا بعض الحقائق أريد أن أطرحها أمامكم وهي :

1 - إنّ نجم شمال إفريقيا كتنظيم سياسي بهياكله وقيادته ونشاطه السياسي ظاهرة سياسية واجتماعية معروفة لا ينكره أحد حتى من طرف السلطات الفرنسية في باريس التي حاولت أن تحله بدون جدوى فهو حدث تاريخي ثابت.

2 - إنّ النجم ليس له وجود رسمي ومعنى هذا أنّ هذا التنظيم لم يقم بالإجراءات القانونية والإدارية التي تفرضها القوانين الفرنسية على التنظيمات السياسية فالنجم إذا غير شرعي في نظر السلطات الفرنسية التي لم تستطع أن تحله لأنّه غير موجود رسميا.

وأعتقد أنّ الدارسين "للنجم" لم يعطو لهذه القضية أهمية كبرى وأغلب الباحثين لا يلتفتون إليها وقد ذكرها الأستاذ أجرون، فقال : "*إن النجم لم*

يتكون كجمعية مصرح بها إلى إدارة الشرطة كما فعل حزب الشعب الجزائري سنة 1937، فهو في نظر السلطة الفرنسية غير شـــرعي "***Illégal***"، ويضـــيف أجرون أنّ *"الإعلان عن تأسيس النجم في اجتماع عام يجعل هذا النظام غـــير سري"* ويبقى هذا الكلام غير واضح[1].

كما أنّ الأستاذ بوقسة يقول *"في نظر اللجنة المركزية للحزب الشـــيوعي الفرنسي يجب على النجم أن يكون له وجود شرعي في فرنسا وغير شرعي في الجزائر"* ولم يشرح الأستاذ بوقسة هذا الكلام[2].

وأعتقد أنّ هذه القضية تكتسي أهمية كبرى لأنّ غموضها هو الذي يجعل تبني تأسيس "النجم" متضارب ومختلف فيه لأنّ هذا الطابع غير الرسمي يحرم من الوثيقة الرسمية التي تثبت بصفة قطعية من أسس النجم ومتى تأسس وما هي هياكله وما هو هدفه ؟

وعدم وجود هذه الوثيقة الرسمية يجعل الأقوال متضاربة وربما تحاول كـــل جهة أن ترجع الفضل لها في تأسيس "النجم" وهو التنظيم الذي تولدت منـــه الدولة الجزائرية المعاصرة. ولإنصاف الحقيقة أقول -مؤيدا في هذه المحاولة التي قام[3] بها الأستاذ محفوظ قداش في كتابه "تاريخ الحركة الوطنية الجزائريـــة"- أقول أنّ تأسيس "النجم" يخضع لثلاث مستويات أو غظاءات، يعـــني بـــروز "النجم" للوجود اكتنفته ثلاثة أغطية :

1 – الغطاء الروحي يعني الأمير خالد

2 – الغطاء التنظيمي يعني الحزب الشيوعي الفرنسي

3 – الغطاء العملي يعني مصالي الحاج.

ومعنى هذا أولا أنّ الأمير خالد لم يؤسس "نجم شمال إفريقيا" ولكننا لا ستطيع أن نفهم تأسيس هذا التنظيم إذا لم نأخذ بالاعتبار النشاط السياسي لذي قام به الأمير خالد في الجزائر قبل منفاه والذي تبين من خلاله أن لا جدوى للحوار السياسي مع السلطات الاستعمارية من جهة والنشاط سياسي الذي قام به الأمير خالد في فرنسا وفي باريس خاصة قبل لجوءه إلى شرق نهائيا والذي تكونت من خلاله جماعة من الجزائريين المقيمين بفرنسا تأثروا بتجربة الأمير خالد إلى درجة أن عقدوا العزم على مواصلة الكفاح سياسي من جهة أخرى.

فالأمير خالد أدرك شيئين متناقضين وهما الحوار السياسي مع الحكم فرنسي لا يؤدي إلى نتيجة في حين لا يمكن القيام بالنشاط السياسي إلاّ داخل هذا الحوار ولذا قد أدى به هذا التناقض إلى الاقتراب من اليسار فرنسي وخصوصا الشيوعيين لأنّهم هم البديل للحكم الفرنسي ويبدو أنّ

الجماعة التي تأثرت بنشاط الأمير خالد وهم بلغول، سي جلالي وعلي بانون ومصالي الحاج وغيرهم قد آمنت بهذه الضرورة واقتربت من الحزب الشيوعي الفرنسي.

وهكذا يأتي الغطاء التنظيمي فاقتراب جماعة الأمير خالد من الحزب الشيوعي صادف رغبة هذا الحزب في تأبيد شعوب المستعمرات من التحرر وسهل مهمة جماعة الأمير خالد في القيام بالنشاط السياسي داخل تنظيم سياسي شرعي وقد أخذ اسم نجم شمال إفريقيا.

ولكن هذا التلاحم غير طبيعي وسرعان ما تحول إلى سوء فهم حول نقطة الاستقلال ثم إلى صراع وانشقاق وانسحاب الحزب الشيوعي ونزع الغطاء التنظيمي من جماعة الأمير خالد. ومن هنا يأتي دور مصالي الحاج في إنقاذ نجم شمال إفريقيا من الزوال بل تعزيزه وتقويمه وإعطائه الطابع الوطني في البداية ثم الثوري.

هكذا كان بروز نجم شمال إفريقيا إلى الوجود ويبدو لي أن الدور الذي لعبه الحزب الشيوعي الفرنسي ومصالي الحاج قد اهتم به المؤرخون بصفة مرضية ومقنعة. ولكن دور الأمير خالد بقي مغمورا نوعا ما لأنّه غير مباشر وأعتقد أنّ هذا الدور يتجلى على ثلاث مستويات :

1 - في اتصالات الأمير خالد وتأثيره على الجماعة التي ذكرتها سابقا وهنا أريد أن أشير إلى نقطة ذات مغزى بعيد وهو تسمية "التنظيم" وفيه تضارب قوي بين ما يذكره أفراد هذه الجماعة من أنّ اسم "نجم شمال إفريقيا" كان من اقتراحهم وبين ما تقوله الوثائق الرسمية للحزب الشيوعي أنّ الحزب هو الذي قرر إنشاء هذا التنظيم بهذا الاسم.

ويبدو لي أنّ التحليل النفسي يعطي الحق للجماعة لأنّ مصطلح "النجم" غير معروف في قاموس المصطلحات الماركسية في حين أنّ "النجم" و"الهلال" من المصطلحات التي يستعملها المسلمون بكثرة ولهذا أعتقد أنّ التسمية كانت من مبادرة الجماعة وتبناها الحزب الشيوعي حتى يتقرب من خلالها إلى العمال المسلمين في فرنسا.

2 - إنّ عددا كبيرا من الوثائق تذكر الأمير خالد كرئيس شرفي لنجم شمال إفريقيا وكثيرا من الاجتماعات العمومية التي يقيمها نجم شمال إفريقيا تكون دائما بالرئاسة الشرفية للأمير خالد وحتى سنة 1929 كانت هذه الاجتماعات توضع دائما تحت إشراف الأمير خالد وهو يدل على أنّ روح الأمير خالد سادت نشاط "النجم" بصفة مستمرة بل أكثر من هذا أنّ برنامج "النجم" في البداية خصوصا سنة 1926 هو نفس البرنامج الذي كان يدافع

عنه الأمير في الجزائر من إلغاء لأنديجانة إلى المساواة في الحقـــوق والواجبـــات والمشاركة الكاملة في الانتخابات.

3 - لم يجد "النجم" بدا من إنشاء جريدة بنفس اسم الجريدة التي كـــان يصدرها الأمير خالد في الجزائر وهي جريدة "الأقدام" ورغم حجز الســـلطة الفرنسية لهذه الجريدة فإنّ النجم استمر في المحافظة على اسم "الأقدام" وفـــاء للأمير خالد فكانت الجريدة الأولى باسم "أقدام الإفريقـــي" وكانـــت إدارة الشرطة في باريس تقول بأنّ الجريدة تحت عناية الحزب الشـــيوعي الفرنســـي وأنّها تطالب باستقلال المستعمرات أما الصحف الفرنسية في الجزائـــر فهـــي تنسب صراحة هذه الجريدة للأمير خالد وتقول "أنّها تصدر الآن ببـــاريس" وترى فيها خطرا كبيرا على المستعمرات والتهمة موجهة للأمير خالد رغـــم عدم وجوده بفرنسا[5].

وهكذا فإنّ روح الأمير خالد بقيت تغطي نشاط "النجم" في الســـنوات الأولى من بروزه وهذا الثقل المعنوي بقي ظاهرا حتى بدأ مصالي الحاج يعطي للنجم اتجاها وطنيا محضا ويخرجه من الغطاء التنظيمي الذي كان يسدله عنه الحزب الشيوعي ويظهر النجم حينئذ كتنظيم مستقل بزعامة مصالي الحاج.

الهوامش :

1 - نجم الشمال الإفريقي والحركة الوطنية الجزائرية إصدارات المركز الثقافي الجزائري بباريس سنة 1988، ص : 78.

2 - نفس المرجع ، ص : 98.

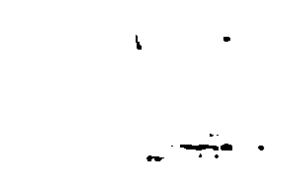
3 - محفوظ قداش : تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، سنة 1980، ج1 ص : 182-201.

4 - أنظر محمود بوعياد ، التاريخ بواسطة الشريط، إصدارات المكتبة الوطنية، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، سنة 1974.

5 - أنظر زهير إحدادن، تاريخ الصحافة الأهلية في الجزائر، الشركة الوطنية الجزائرية للكتاب، الجزائر، سنة 1983، ص 400.

الفصل الثالث

الثامن ماي 1945



العبرة من حوادث 8 ماي 1945*

إنّها مناسبة سعيدة هذا اللقاء الذي سمح لنا بـإثراء معلوماتنـا حـول موضوع 8 ماي 1945 و هي مرحلة هامة في حياة الشعب الجزائري، وإنني أتمنى لهذا الملتقى النجاح الكامل.

وعنوان الموضوع الذي سأتعرض إليه أمامكم هو "**العبرة من حـوادث 8 ماي 1945**" ولكن في الحقيقة لست مطمئنا من تلبية هذا العنوان لما سوف أذكره، لأنني أريد أن أشير إلى بعض النقاط يمكن استخراج عدة عبر منـها، وهذه النقاط هي :

1 - إنني حاولت عندما طلب مني المشاركة في هذا اللقاء الميمـون أن أتناول الموضوع من خلال الصحافة في ذلك الوقت نظرا لتخصصي ولكـن عندما وجدت أنّ الصحافة الوطنية لم تكن تظهر في تلك الظروف، فلا يمكن الاعتماد عليها إذا وهو نقص لا يرضي البحث الموضوعي.

* ملتقى بدار الثقافة بسطيف، مايو 1989.

فجريدة البصائر توقفت في 11 أوت 1939 و لم تستأنف نشاطها إلاّ في شهر ماي سنة 1947، وجريدة "ليكاليتي" (المساواة) التي كانت تصدر باللغة الفرنسية أوقفتها السلطات الاستعمارية في 4 ماي 1945 و لم تعد للظهور إلاّ في سنة 1946 بعد مضي أكثر من سنة على الأحداث، وجريدة "لاكسيون ألجيريان" (العمل الجزائري) التي كان يصدرها حزب الشعب الجزائري السري كانت هي كذلك سرية ويصعب العثور على الأعداد التي كانت تصدر في هذه الفترة، فالصحافة الوطنية كانت إذا معدومة ولا يوجد إلاّ الصحافة الاستعمارية بما فيها الشيوعية التي غطت هذه الأحداث حسب منظورها المعادي للشعب الجزائري، فلا يمكن حينئذ الاعتماد عليها وحدها لكتابة هذه الفترة من تاريخنا.

وهنا لاحظت قلة المراجع الخاصة بهذه الفترة فليس هناك إلاّ كتاب واحد مخصص لهذه الفترة وهو كتاب الأستاذ عناد ثابت وبعض كتب أخرى تشير إلى هذه الأحداث مثل كتاب محفوظ قداش أو كتاب فرحات عباس ولعل المناسبة مواتية للفت النظر إلى ضرورة الاعتناء بهذه الفترة الهامة من تاريخ الجزائر.

2 – ما من شك أنّ هذه الفترة هامة، وتعتبر تحولا كبيرا في تاريخ الجزائر ما بين 1830 و1962 لأننا عندما نتمعن في المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي نجد أنّ هذه المقاومة مرت على ثلاث مراحل :

من 1830 إلى غاية 1880 بالتقريب وهذه التواريخ ليست مضبوطة ولكنها فقط مواتية للعرض كانت المقاومة ذات طابع عسكري مسلح منظم على المستوى الوطني (الأمير عبد القادر – المقراني – بوعمامة ... الخ).

من 1880 إلى 1945 أصبحت المقاومة تأخذ شيئا فشيئا طابعا سياسيا منظما يعتمد على الحوار والمفاوضات وتقديم المطالب السياسية والإصلاحية دون اللجوء إلى العنف واستعمال السلاح مثل ما وقع في عين الترك قرب مليانة سنة 1902 أو بالأوراس سنة 1915 و 1916 وغير ذلك هذه العمليات لم تكن منظمة وليس لها هدف سياسي ويبقى التنظيم السياسي هو السائد ابتداء من حركة الأمير خالد ونجم شمال إفريقيا واتحادية النواب وجمعية العلماء، رغم التباين الموجود في المواقف السياسية.

من 1945 إلى 1962 رجعت المقاومة إلى طابعها الأصلي وهو التنظيم المسلح واللجوء إلى العنف كمطلب سياسي وبهذا تظهر لنا أهمية هذه الحوادث التي نحتفل بذكراها اليوم.

3 - إذن نحن أمام تحول كبير كما أشرت إلى ذلك ولأوّل مرة منذ أكثر من ستين سنة نجد المثقفين والزعماء (القادة) لجميع التحركات الموجودة يلتفون حول فكرة الاستقلال وينشطون لتكوين حركة جماهيرية عارمة التي لا تؤمن إلاّ بالمقاومة المسلحة ونجد جميع الهيئات والتنظيمات التي كانت تؤمن بسياسة الاندماج بما فيها جمعية العلماء، يتخلون عن هذه الفكرة ويرونها لا تفيد شيئا ويعتنقون فكرة الاستقلال التي كان ينادي بها حزب الشعب الجزائري.

وعندما نتكلم عن حوادث 8 ماي 1945 يجب أن نعلم أنّ هذه الحوادث ليست هي في الحقيقة إلاّ نتيجة لنشاط بدأ سنة 1943 وانتهى بهذه الحوادث فالحق إذا أن نقول فترة 1943 - 1945 هي كما ترون قصيرة. سنتان وبضع أشهر لكنها عرفت منعرجا كبيرا فتح لنا الطريق للقيام بالثورة ولاسترجاع سيادتنا الوطنية.

وأريد أن أذكركم بما وقع في هذه الفترة القصيرة بصفة موجزة : في 10 فبراير 1943 وقّع عدد من النواب والشخصيات على وثيقة معروفة بكلمة البيان قام بتحريرها فرحات عباس وتتضمن خصوصا الاعتراف بالسيادة الوطنية الجزائرية وبتكوين حكومة جزائرية تتولى شؤون البلاد. وفي 31

مارس 1943 قدمت هذه الوثيقة "البيان" إلى السلطات الفرنسية وإلى الحلفاء المتواجدين في الجزائر ولا ننسى أننا في الحرب العالمية الثانية.

- وفي 26 جوان 1943 أضيف للبيان برنامج سياسي.

- في شهر أوت 1943 بدأت السلطات الفرنسية مناوراتها لفك وحدة الموقعين على "البيان" انتهت بتراجع وخيانة العدد الكبير منهم وبسجن فرحات عباس والسايح.

- في 2 ديسمبر أطلق سراح عباس والسايح.

- في 7 مارس 1944 يلقي ديغول خطابه المعروف يثبت فيه فرنسة الجزائر.

- في 14 مارس 1944 تتكون بزعامة فرحات عباس حركة تدعى "أحباب البيان والحرية لمناصرة مطالب البيان" وتضم أعضاء من جمعية العلماء ومن حزب الشعب الجزائري.

- في 8 ماي 1945 تندلع الحوادث وتستمر عدة ايام يرفع فيها الشعب الجزائري السلاح لانتزاع سيادته.

هذا هو ملخص هذه الفترة وإذا تمعنا النظر فيها نجد ملاحظتين :

- الدور الأساسي الهام الذي قام به فرحات عباس في تأسيس هذه الحركة، وما من شك أنّه في هذه السنوات القليلة كان الشخصية البارزة في تنشيط هذه الحركة سواء من ناحية تأسيسها أو الدفاع عنها والسهر عليها والجدير بالملاحظة أنّه بذل جهدا كبيرا طيلة سنة كاملة قبل تأسيس الحركة وأنّه في هذه الفترة اعتقل لمدة ثلاثة اشهر قبل أن يلقى عليه القبض مع رفقائه بعد أحداث 8 ماي. ومما يجب التذكير به أنّه مرت فترة أطول من سنة ما بين تاريخ موافقة النواب وعدد من النخبة على ما سمي "البيان" وهو 10 فبراير 1943 وبين تاريخ تأسيس حركة أحباب البيان وهو 14 مارس 1944، وفي هذه الفترة نرى فرحات عباس يصمد أمام مناورات الإدارة الاستعمارية وأمام خيانة النواب، ورغم الاعتقال يمضي قدما بكل إخلاص في كفاحه من أجل (الوطن الجزائري) Patrie Algérienne، وما من شك أنّ هذه الفترة كانت تحوّلا كبيرا في حياته السياسية وفي شعوره الوطني.

الملاحظة الثانية هي خاصة بالدور الهام الذي قام به حزب الشعب الجزائري في إنجاح هذه الحركة زيادة على أنّه كان الوحيد الذي ما انفك يطالب باستقلال الجزائر منذ 1926 مع بداية نجم الشمال الإفريقي، ونرى هذا الدوّر يبرز على أربع مستويات :

* عند تحرير وثيقة "البيان" كان فرحات عباس يستشير زعماء حزب الشعب وقد أعطى تفاصيل ذلك في كتابه.

* عند إنشاء حركة "البيان والحرية" وقد اجتمع عباس بزعماء حزب الشعب وبالأخص "الأمين دباغين وعسلة حسين" ولم يقدم عباس على إنشاء هذه الحركة إلاّ بعد موافقة هذا الحزب وزعيمها مصالي الحاج.

* بعد إنشاء هذه الحركة عرف حزب الشعب كيف يستولي على المكاتب المحلية لهذه الحركة وأتقن تنظيمها ونشر في الجماهير فكرة الاستقلال وضرورة اللجوء إلى العنف وطلب من مناضليه الذين كانوا يعملون في السرية التامة أن يناصروا هذه الحركة إلى درجة أنّ الجماهير كانت تقبل على مكاتب التسجيل في طوابير طويلة.

* عند اندلاع أحداث 8 ماي 1945 فإنّ حزب الشعب هو الذي كان ينظم المظاهرات بمساعدة "الكشافة الإسلامية الجزائرية" وتبقى فكرة القيادة بثورة عارمة محل نقاش والراجح أنّ الفكرة لم تأت من قيادة حزب الشعب ولكن قام بها بعض المسؤولين المحليين، ولعل السر يكمن هنا عند "الأمين دباغين" الذي هو مازال على قيد الحياة والذي نتمنى أن يخرج من سكوته ليعطي ضوءا جديدا لهذه النقطة.

تلك هي العبرة التي أردت أن أستخرجها معكم من هذه الحوادث ومن هذه الفترة الهامة التي مهدت الطريق لثورة فاتح نوفمبر.

والسلام عليكم ورحمة الله

الفصل الرابع

الثورة الجزائرية

1 ـ طبيعة الثورة*

أشكر المرصد الوطني لحقوق الإنسان وجامعة الجزائر على هذه الدعوة الكريمة للمشاركة في هذه الندوة حول فاتح نوفمبر وأتمنى لها كل النجاح. كما أشكر الجمهور الذي حضر معنا في هذه الندوة وأرجو أن لا أخيب ظنه وعسى أن نستفيد كلنا من هذا اللقاء.

وأغتنم هذه الفرصة لأحيي الذكرى الأربعين للثورة الجزائرية المباركة. هذه الثورة التي فتحت للشعب الجزائري أبواب الرفاهية والكرامة، ورغم الصعوبات الظرفية التي يعيشها اليوم الشعب الجزائري فإنّ الثورة تبقى له مكسبا عظيما لأنّها حررته من العبودية، ومما لا شك فيه أنّ المسيرة التي قطعناها منذ الاستقلال والتي هي مليئة بالأفراح والأحزان معا جعلت من الشعب الجزائري أمة محترمة رغم الأحقاد والضغائن. ومما لا شك فيه أنّ هذه المسيرة أبرزت للوجود جميع الحقوق التي حرم الاستعمار الشعب الجزائري منها وأصبح المواطن اليوم يسعى ويبذل كل جهده لتحقيقها وتجسيدها في الواقع.

---

* محاضرة ألقيت بالمرصد الوطني لحقوق الإنسان، الجزائر، أوّل نوفمبر 1994.

وإنّ الندوة التي نجتمع حولها اليوم تدخل ضمن هذا الجهد المبذول كما يدلّ ذلك بقوة شعارها، وإنّ النظرة إلى الثورة الجزائرية من ناحية الحقوق والكرامة والاحترام لهي أحسن الوسائل لتغلب العقل والمنطق على القوة والعنف.

إخواني أخواتي :

إنّ العنوان الذي أحدثكم فيه اليوم هو "ثورة التحرير الوطنية في المنظور الدولي" وأريد أن أوضح في البداية أنني لن أتطرق لهذا الموضوع من الناحية القانونية لأنّ ذلك ليس من اختصاصي ولا من الناحية الاستراتيجية لأنّ هذه الناحية قد درست بصفة مستفيضة وبكيفية أدق وأحسن مما أستطيع أن أفعله.

والحقيقة أنّ الهدف من العنوان هو إبراز المكانة المعتبرة عند الدول والشعوب التي حصلت عليها الثورة ولعله من الأحسن أن نقول "إشعاع الثورة الجزائرية في الخارج" وكلنا يعلم أنّ الثورة الجزائرية لعبت دورا هاما في التطور السياسي الذي عرفه العالم بعد الحرب العالمية الثانية ولعبت دورا قياديا في الحركة التحررية العالمية.

هي التي ساعدت المغرب وتونس على إتمام استقلالهما.

هي التي أرغمت السلطات الفرنسية على تغيير موقفها من المستعمرات الإفريقية فبادرت بمنحها نوعا من الاستقلال.

هي التي رفعت معنويات شعوب العالم العربي -اكثر مما فعلتـــه الثـو
المصرية- لأنّ هذه الشعوب أصبحت تنظر إلى الثورة الجزائرية كمثال وكقدو
ونجاح الثورة كنتيجة حتمية لمثل هذه الحركة.

هي كذلك (يعني الثورة الجزائرية) التي أصبحت موضوع دراسة وتحليـ
من طرف الصحفيين والسياسيين والمفكرين، وكانت بذلك ســببا في إنتـ
فكري وأدبي غزير في جميع اللغات.

ولا تنسى أنّ الثورة الجزائرية هي التي كانت السبب الرئيســي في تغـ
النظام السياسي الفرنسي ومست مشــاعر الفرنســيين إلى درجــة أنّهــم
يستطيعوا نسيان ما وقع في الجزائر والكثير منهم يعتبر هذه المرحلــة مرحلـ
تحويل كبيرة في حياتهم السياسية.

وهي التي جلبت إليها عددا كبيرا من الصحافيين والكتــاب والشــعر
أصبحوا في بلدانهم المختلفة في ألمانيا، إسبانيا، الولايات المتحدة وغيرها مـ
الدول دعاة للثورة الجزائرية يدافعون عنها ويسعون بكل إخلاص في تعزيـ
موقفها، وقد يطول بنا الكلام في هذا الباب ولكننا لا نخوضه لعدم تمكننا مـ
الوثائق الضرورية.

وهناك ميادين أخرى مثل حركة عدم الانحياز، فكانت الثورة الجزائريـ
فيها الفاعل أو المحرك الأساسي.

وكل هذا قد وقع في ظروف دولية مطبوعة بالحرب الباردة والصراع بين العالم الاشتراكي الماركسي والعالم الرأسمالي الغربي.

إنّ كل ما ذكرته معروف ولا شك أنّ الكثير منكم في هذه القاعة يعرفون بعضا من هذه النقاط أحسن مني لأنّهم كانوا عاملا من عواملها أو لأنّهم درسوها وتعمقوا فيها. ولقد فكرت مليا في هذه الظاهرة وقلت لا فائدة من شرح وتحليل هذه الميادين لمثل جمهوركم وإنّما أغتنم الفرصة لأطرح أمامكم بعض الملاحظات التي تبدو بسيطة ولكنني أعتبرها في نظري المتواضع هامة لأنّها تستحق التفكير فيها.

تدور هذه الملاحظات حول نقطة واحدة هي : ما هو سبب هذا الإشعاع ؟ ويبدو لي أنّ سببين قد لعبا دورا هاما في إشعاع الثورة الجزائرية في الخارج وفي الداخل بالطبع كذلك، وهما أولا طبيعة هذه الثورة وثانيا تنظيمها.

1 – طبيعة الثورة :

أمّا فيما يخص طبيعة الثورة وأقصد بذلك المعاني التي تحملها والقيم التي تعتمد عليها فإنّها تطرح عدة قضايا لم ينظر فيها إلى يومنا بصفة جدية ولم نفصل فيها وتركناها عالقة مما خلق نوعا من الغموض سمح لمناهضي الثورة أن يتسربوا من خلالها إلى داخل الثورة ويفسدوا فيها، ومن بين هذه القضايا

قضية تسمية الثورة : فالمتمعن بجد أننا نستعمل ثلاث مصطلحات للدلالة على هذه الثورة : فهناك من يقول "الثورة" وهناك من يقول "حرب التحرير" وهناك من يقول "الكفاح المسلح"، وفي كثير من الأحيان نستعمل المصطلحات الثلاثة بدون تمييز في نص واحد.

وربما يبدو هذا تافها ولكن الحقيقة أنّه في فقه اللغة كل مصطلح يحمل معنى دقيقا خاصا به وهذا المعنى يعطي بعدا سياسيا واجتماعيا مختلفا من مصطلح إلى آخر، وينجر عن ذلك استنتاجات ومواقف متغايرة.

والملاحظ أنّ هذه المصطلحات وضعت أولا باللغة الفرنسية ثم ترجمت إلى اللغة العربية. فالثورة (Révolution) هي حركة داخلية لتغيير نظام سياسي داخلي : الثورة الفرنسية 1789 و ثورة أكتوبر 1918 والثورة المصرية، كل هذه الثورات وقعت بين مواطنين ينتمون لوطن واحد ولكنهم مختلفون على النظام السياسي القائم وهذا لا ينطبق على وضعية الجزائر سنة 1954.

ومصطلح الكفاح مصطلح ضعيف يفتقر إلى نعته بالمسلح لأنّ الكفاح قد يكون سياسيا مثل ما كان في الجزائر قبل 1954 فهناك كفاح سياسي متبوع بكفاح مسلح، واستعمال هذا المصطلح يقلل من قيمة الثورة الجزائرية ويقزمها، وهذا المصطلح وإن كان مقبولا من ناحية التحليل التاريخي فهو لا يمكننا من إدراك أبعاد الثورة ومن إشعاعها في الخارج.

ويبقى إذا مصطلح الحرب (حرب التحرير) ويستعمل بهذه الإضافة لإعطائه معنى أدق، فهذا يطرح الإشكالية الحقيقية للثورة ويفسر طبيعتها، فهي حرب بين الجزائر كدولة وأمة وفرنسا التي أعلنت الحرب باعتدائها على الجزائر سنة 1830، وباحتلالها واستعمارها منذ ذلك الوقت ظلما وعدوانا وبدون رضا من الشعب الجزائري بل الشعب استمر في الحرب بصفة متقطعة حتى فاتح نوفمبر فأشعل هذه الحرب من جديد حتى أدت به إلى اتفاقية (إفيان) التي تعتبر نهاية لهذه الحرب، فالثورة الجزائرية هي بالفعل حرب بين فرنسا الاستعمارية والجزائر المحتلة وبما أنّ هذه الحرب لم تقع في الحدود ولكن داخل الوطن لوجود (الاستعمار) فإنّ هدف الحرب هو تحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي.

وطبيعة هذه الحرب التحريرية التي يقودها شعب ضعيف مغلوب على أمره، بقوة وشجاعة وإقدام لاسترجاع حقه المغتصب في السيادة والحرية هو الذي جلب عطف و تضامن العدد الكبير من الدول والشعوب في العالم.

إنني حاليا لا أدعو إلى تبديل مصطلح الثورة، فقد لصق بها الآن منذ 40 سنة ولكنني أطرح المشكل وأقول يجب أن تدرس هذه القضية -قضية التسمية- لأنّها ليست بسيطة، وهي في الحقيقة تطرح بدورها عدة قضايا ومن بينها أريد أن أشير إلى قضيتين هما أولا قضية وجود الدولة الجزائرية والأمة الجزائرية قبل 1830، وثانيا قضية إيديولوجية الثورة.

فإنني أقول أننا لا نستطيع أن نكتب تاريخ الثورة الجزائرية إذا لم نبيّن موقفنا من هاتين القضيتين وقراءة الدراسات حول الثورة الجزائرية تتخبط في هاتين القضيتين وكثيرا ما يفصل الدارس فيها بالرجوع إلى انتمائه الإيديولوجي فيعطي لها تفسيرا متلائما مع ميوله وعقيدته وبذلك يجني عليها ونقول يشوهها لأنّه يتجاهل طبيعتها.

وإننا نجد هذا الاتجاه عند الأجنبيين وهم معذورون ولكننا نجد ذلك عند الجزائريين وهم معذورون كذلك إذا كانت نيتهم سليمة وتبقى المسؤولية ملقاة علينا جميعا إذا لم نقم بتوضيح هذه القضايا، ولأعطي مثالا عن هذا الاتجاه أذكر ما كتبه محمد حربي في كتابه الأخير "الجزائر ومصيرها" L'Algérie et son destin وقد صدر سنة 1994 عن دار النشر Médias associés وهو يعبر بوضوح عن هذا الاتجاه الذي ذكرّته، فقد جاء في ص : 23 و 24 من هذا الكتاب "يظهر بصفة قطعية أنّ الجزائر في بداية القرن لم تكن قاعدة لتكوين أمّة" ويقول كذلك "ربما أنّ الحركة الوطنية ترجع وجود الأمة الجزائرية إلى قبل الاحتلال فهي بذلك تمتنع عن دراسة تكوين الشعب الجزائري كمسيرة تاريخية" ويقول في نفس الصفحة "وبالفعل فإنّ الأمة الجزائرية لم توجد إلاّ كإرادة معنوية من طرف مجموعة من مناضلي حزب الشعب".

ومثل هذا الكلام من طرف مؤرخ جزائري له تأثيره في المجتمع الجزائـــري وخاصة عند الطلبة والمثقفين وهو بذلك محترم وله اجتهاد، إنّ مثل هذا الكلام يذكرنا بموقف الحزب الشيوعي الجزائري قبل وفي بداية الثورة "أنّ الجزائر أمة في طور التكوين".

وإذا لخصنا كلام حربي نجد أنّه ينفي أسبقية وجود الأمة الجزائرية من جهة ويقول أنّها من اختراع مناضلي حزب الشعب من جهة أخرى.

وانطلاقا من هذا الموقف فإنّ فهم طبيعة الثورة يختلف عما شرحته من قبل ولعلّ هذا الموقف يميل إلى تبني فكرة الكفاح المسلح وأنّ هذا الكفاح لم يقم به الشعب الجزائري وإنّما قامت به طائفة من مناضلي حزب الشعب، بما أنّ هذا الكفاح قد توج بالاستقلال فإنّ هذه الطائفة استحوذت علـــى الاســـتقلال وفكرة الاستحواذ قضية أخرى خاصة بفترة ما بعد الاستقلال.

وقد تبنى هذه الفكرة قبل حربي المرحـــوم فرحـــات عبـــاس في كتابـــه (الاستقلال الـــمحجور أو المغتصب) L'Indépendance confisquée.

وهكذا يتبين لنا أنّ قضية أسبقية وجود الأمة الجزائرية ووجـــود الدولـــة الجزائرية قضية أساسية في فهم الثورة وفي كتابة تاريخ الثورة، ولكـــن فيمـــا يخص إشعاع الثورة (فإنني أتساءل كيف يمكن أن يثبت عند غيرنـــا عطـــف وتضامن مع أمة غير متكونة أو في طور التكوين، فالشـــعب الأمريكـــي في

الولايات المتحدة يعرف ويعلم أنّ للجزائر تاريخا قبل 1830 وكذلك الشعب الإسباني والإنجليزي وغيرهم، فوجود الأمة الجزائرية قبل 1830 واقع تاريخي اصطدمت به الأمم الأخرى ولذا فهي تعرفه، وقد يطول بنا الكلام ...

أما في قضية الإيديولوجية فإن اللذين يميلون إلى تقزيم الثورة الجزائرية يطرحون هذه القضية بالنفي فيقولون أن الثورة الجزائرية ليس لها إيديولوجية ، فهي مجرد كفاح مسلح له هدف واحد هو الاستقلال ، و هذا لايكفي لتكوين إيديولوجية .

و قد تبنى هذا الموقف كثير من الدارسين الأجنبيين والجزائريين وقد وجدته عند كثير من الطلبة الذين أشرفت عليهم أو شاركت في مناقشة أطروحتهم على مستوى الماجستير.

والحقيقة أنّ هذا الانتقاد يأخذ بالاعتبار الظروف السياسية الموجودة في العالم في ذلك الوقت ولا ينظر إلى طبيعة الثورة الجزائرية بأنّها حرب تحريرية. فالعالم كان منقسما إلى إيديولوجيتين، وهما الماركسية الاشتراكية من جهة والرأسمالية الغربية من جهة أخرى، فكل ما لا يدخل تحت هاتين الإيديولوجيتين فهو عديم الاعتبار في نظرهم.

ونحن نعلم أنّ الثورة الجزائرية تحت قيادة جبهة التحرير الوطني امتنعت من الانحياز إلى إحدى هاتين الإيديولوجيتين وحاولت سياسيا التقرب منهما مع

وانضمت إلى حركة عدم الانحياز ووجدت لدى زعماء هذه الحركة خصوصا نهرو وعبد الناصر وتيتو مساندة تامة.

وهذا الموقف من الثورة جعلها تكسب تعاطفا وتأييدا من طرف دول وشعوب تنتمي إلى الإيديولوجيتين وبذلك أصبحت الثورة الجزائرية حجة وبرهانا تحاول كل دولة أن تكسبه وتستعمله لصالحها، وظهرت قدرة الثورة في كونها استعملت هذه الصراعات الإيديولوجية في صالح الجزائر ولتحقيق الاستقلال، وهذه القدرة في التغلب على إبقاء الثورة في الحياد، هو الذي أعطاها إشعاعا كبيرا في العالم.

وهذا الموقف من الثورة منبثق من القاعدة الإيديولوجية التي انطلقت منها وهذه القاعدة هي الوطنية.

وهناك من يرفض أو يخاف وبالأخص في يومنا هذا الانتماء إلى الإيديولوجية الوطنية بكونها إيديولوجية منغلقة ورجعية والحقيقة أنّ الوطنية الجزائرية متفتحة لأنّها تحررية وليست وطنية توسعية مثل الوطنية الفرنسية أو الألمانية في القرن التاسع عشر وليست وطنية تعسفية مثل الوطنية الفاشية في ألمانيا وإيطاليا.

فالوطنية التحررية تنبعث من حب الوطن وتهدف فقط إلى استرجاع جميع حقوق الشعب الذي هو قوام هذا الوطن وهي بهذا تكون إيديولوجية مثل

الإيديولوجيات الأخرى لأنّها مجموعة من الأفكار الاعتقادية والعملية يؤمن بـ
شعب كامل.

هذه هي طبيعة الثورة الجزائرية : حرب تحريرية ضد مغتصب لسيـ
الشعب وتهدف استرجاع هذا الحق وهو إذا السبب الأوّل في إشعاع الثورة

أمّا فيما يخص السبب الثاني : تنظيم الثورة

2 – تنظيم الثورة : فمن الناحية النظرية فإنّ ميثاق الصومام يعطينا صو
واضحة ومفصلة لهذا التنظيم. ومن الناحية العملية فإننا نستطيع أن نقـول ـ
هذا التنظيم كان محكما لأنّه نجح وهناك عدة ميادين تبين لنا ذلك مثل توحـ
الحركة الوطنية وعزل السلطات الاستعمارية وغيرها من الميادين ولكن بقي ـ
أحسن دليل على هذه الأحكام هو إنشاء (جبهة التحرير الـوطني) كوسـ
لقيادة الثورة وكمنبر للتعبير عن إرادة الشعب الجزائري. ولقد عرفت جبهـ
التحرير الوطني كيف تسيّر الثورة في الداخل وفي الخارج بتواجدها في كـ
مكان في الوطن وفي العالم وقد لعبت مكاتب جبهة التحرير الوطني في الخارج
دورا كبيرا في التعريف بالثورة وفي الاتصال بمن يستطيع أن يقـدم مسـاعـ
للثورة.

وفي ختام هذا التدخل أريد أن أشير إلى الدور الذي لعبه إعلام جبهة التحرير الوطني في تجنيد الرأي العام العالمي، ولكني لا أطيل الكلام فأخصص حديثي في هذا الباب على توزيع الصحافة المكتوبة التابعة لجبهة التحرير الوطني وأحدثكم عنها لأنّها مجهولة من جهة ولأنّها أوصلت كلمة الثورة إلى قاعات التحرير لكبريات الصحف في العالم وللشخصيات السياسية والفكرية في العالم بصفة مستمرة حتى الاستقلال، مطلعة قادة الرأي العالمي بما يجري في الجزائر وبطبيعة الثورة وأهدافها.

لقد أنشأت في تطوان بشمال المغرب مصلحة تابعة لجريدة "المقاومة الجزائرية" في بداية سنة 1956، كلفت بتوزيع هذه الصحيفة في العالم ولقد تم الاتصال والاتفاق مع السلطات المغربية والإسبان لتسليم مصلحة البريد الجوي التابع لإسبانيا كميّة معتبرة من جريدة المقاومة لتوزيعها بواسطة البريد الجوي مما يسهل إيصال الجريدة إلى أقصى مكان في العالم في وقت قصير جدا، كما توصلت هذه المصلحة التابعة للجريدة بمساعدة جميع مكاتب الجبهة في العالم توصلت إلى وضع قائمة واسعة لجميع الشخصيات والمنظمات والأحزاب والهيئات العلمية إلى غير ذلك لترسل إليهم الجريدة، وقد بلغت هذه القائمة رقم 3000 عنوانا ترسل إليها ما بين عدد واحد إلى 10 أعداد من الجريدة.

وبهذه الطريقة أصبحت الجريدة تقرأ بصفة مستمرة في جميع أنحاء العالم، في أستراليا في إندونيسيا، في أمريكا الجنوبية في فرنسا نفسها مباشـــرة بواســـطة البريد.

وما ذكرت هذه المصلحة إلاّ كمثال في التنظيم المحكم وفي الجهد المبذول بجميع الوسائل لتصبح كلمة الجبهة موجودة في كل مكان حتى يتزايد عطف وتضامن العالم مع الثورة.

وفي الختام اسمحوا لي إن تناولت هذا الموضوع من هذه الزاويـــة، ولقـــد رأيت فيها منهجية تمكنني نظرا لقلة المراجع لدي من إضافة شـــيء جديـــد لموضوع قد تناوله الكثير، وأشكركم والسلام عليكم ورحمة الله.

2 ـ دعاية جبهة التحرير الوطني في الثورة *

مما لا شك فيه أنّ تاريخ الثورة الجزائرية مليء بالانتصارات وإننا في كثير من المناسبات نذكر الناس بهذه الانتصارات ونتذكرها.

ومما لا شك فيه أيضا أنّ المسيرة الثورية بين 1954 و 1962 لم تكن خالية من المشاكل والصعوبات التي أحدثت داخل الثورة أزمات وأزمات نريد في أوّل وهلة أن نخفيها أو أن نقلّل الحديث عنها كأنّها عيوب تلطخ الثورة ونحن مخطئون بغير شك في هذا الموقف.

وفي بداية حديثي هذا عن دعاية جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة الجزائرية أريد أن أذكر بهذه الملاحظة : فكتابة التاريخ تبقى ناقصة إذا لم يذكر المؤرخ الانتصارات والأزمات والانتصارات ولا تكون عظيمة إلاّ بتغلبها على الأزمات.

ولقد حاولت أن أضع قائمة للأزمات التي عرفتها الثورة مع الكيفية التي مكنتها من التغلب عليها وهي قائمة طويلة أذكر منها الأزمات الكبيرة وهي :

* محاضرة ألقيت بقصر الثقافة، الجزائر 1996.

وفاة البعض من قادة الثورة مثل بن بولعيد وعبان وعميروش وسي الحواس وعلي ملاح. قضية تصفية بعض الإطارات في الولاية الثالثة المعروفة بالزرق La bleuite، قضية عجول في الولاية الأولى، قضية العموري، قضية العرباوي واعراب، قضية سي الزوبير، قضية الأمين دباغين، قضية عبد الحي، قضية سي صالح، والخلاف بين القيادة العامة للجيش والحكومة المؤقتة .. الخ.

كل هذه القضايا أحدثت كما ذكرت داخل الثورة أزمة تضررت منها الثورة وعرقلتها أحيانا في مسيرها الطبيعي وجميع هذه القضايا تحتاج إلى شروح وتوضيح وتحليل لابد أن نقوم بها في يوم من الأيام حتى نعرف كل شيء عن الثورة نعم أنا أدعو إلى ذلك ولكن في هذا الحديث أريد أن أقدم ملاحظتين فيما يخصها :

1 - لم تتمكن أزمة من هذه الأزمات مهما بلغ خطرها أن توقف الثورة ولا أن تحيدها عن هدفها الذي هو الاستقلال بل من الناحية التاريخية فإن جبهة التحرير الوطني قد نجحت في مهمتها. فإنها حققت الاستقلال واستطاعت أن ترجع للجزائر سيادتها الوطنية وليست الأزمات إلاّ عثرات والمهم هو الانتصار النهائي.

2 - وبما أننا نتحدث عن الدعاية فإنّ دعاية جبهة التحرير الوطني لم تلتفت في يوم من الأيام إلى هذه الأزمات، فلم تتحدث عنها لا في مناشيرها ولا في صحفها، وعندما تظهر قضية فإنّها تبقى محصورة في حدودها الجغرافية

ولا تتعدى الناحية التي ظهرت فيها، فقضية سي صالح مثلا لم تخرج من إطار قيادة الولاية الرابعة وقضية سي الزوبير بقيت كذلك محصورة في الحدود بين الجزائر والمغرب، وقضية عبان لم تخرج من إطار لجنة التنسيق والتنفيذ، إلى غير ذلك من القضايا.

ومن البديهي أنّ جبهة التحرير الوطني تفرض الصمت في مثل هذه القضايا وقد وجدت مساعدة ثمينة في هذه المهمة في انضباط المناضلين الذين تعودوا احترام مواقف القيادة والانصياع إليها والحقيقة أنّ دعاية الثورة لم تلتزم الصمت في قضيتين اثنتين من بين القضايا التي ذكرتها، أولا في قضية ملوزة ولكنها نسبتها إلى جرائم الجيش الفرنسي وثانيا في قضية وفاة عبان وقد ذكرت أنّه مات إثر جروح أصابته في معركة داخل التراب الجزائري.

ونظرا لهذا الصمت فإنّ هذه الأزمات بقيت مجهولة حتى الاستقلال وبذلك لم تؤثر كثيرا على سير الثورة وقد لعبت الدعاية دورا هاما في هذا التطور.

وانطلاقا من هذا فهل نستطيع أن نعطي تحديدا لدعاية جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة التحريرية ؟ نعم وباختصار فإنّ ميثاق الصومام هو الذي يعطينا تعريفا لدعاية الثورة مع العلم أنّ ميثاق الصومام قد وضع سنة 1956 أي سنتين تقريبا بعد اندلاع الثورة، ويقول ميثاق الصومام "*أنّ الدعاية ليست بالتحريض Agitation فالتحريض يتميز بالعنف في الكلام وبدون جدوى*"

ويضيف الميثاق فيقول *"وبما أنّ الشعب الجزائري مستعد أتم الاستعداد للعمل المسلح الناجح فإنّ خطاب جبهة التحرير الوطني يجب أن يعبر عن هذا النضج والاستعداد بصفة جدية وغير متطرفة لا تخلو من الصمود والصراحة والـــروح الثورية"*.

وإذا تمعنا هذا التعريف فإننا نلاحظ أنّه يبتعد عن التعريف الماركسي والعصري للدعاية، فعند الماركسية فإنّ التحريض مواز للدعاية فهما متلازمان لا تكون الدعاية بدون تحريض في حين نجد ميثاق الصومام يبعد استعمال التحريض ويقول أنه لا يفيد وهو بدون جدوى بل أكثر من هذا نجد ميثاق الصومام يتكلم عن الاتزان و لصراحة والصمود و هي صفات تكاد تخلو منها الدعاية العصرية . لماذا هذا التباين؟ في الحقيقة فإن الثورة لم تحتاج إلى المرور على مرحلة التحريض – هـــذه المرحلة قد سبقت في سنوات قبل 1954. أما في ما بعـــد فإن الأمور قد أصبحت جدية والأشياء التي فيها فائدة هي الأشياء المبنية على الصراحة ومن جهة أخرى فإن ميثاق الصومام قد ظهر في سنة 1956 وهي السنة التي أصبح فيها الشعب الجزائري كله بجميع فئاته ومنظماته ملتفا حول جبهة التحرير الوطني وبالتالي فهي ليست محتاجة إلى تحريضه بل هي تحتاج إلى إقناعه بمواصـــــلة الثورة حتى النهاية باستعمال الشرح والصراحة واليقظة وهي الصـــفات التي

يريد أن تكتسبها دعايته وهو بذلك يعرّفها وكما رأينا فإن هذا التعر يف يتناقض مع ما هو معروف عن الدعاية العصرية وهو يـــتميز بخصوصيات نريد أن نذكر البعض منها وقد أدى بي التفـــكير. إلى استخراج خمسة هي أساسية ومهمة وهذه الخصائص الخمسة هي

1- الاستمرارية : ومعنى هذه الكلمة أن دعاية جبهة التحــــرير الوطني هي استمرار لدعاية حزب الشعب الجزائري ونجم شـمال إفريقيا فهي إرث زكته وقامت بتنميته والمعلوم أن جميع المناضـلين الذين قاموا بالثورة في الفاتح نوفمبر وعددهم لم يتجاوز الأ لفـين مناضلا كلهم كانوا مناضلين في حزب الشعـــب من قبل أو في المنظمة الخاصة التابعة لهذا الحزب .

وعندما أسس هؤلاء جبهة التحرير الوطني فإنهم أسسوها على منوال التنظيم الذي كانوا يعملون فيه من قبل و الذي كان يتميز بشيئين أساسين وهما من جهة التنظيم الهرمي ومن جهة أخرى السرية في النشاط وهذا النوع من التنظيم يخلق نوعا من المساواة بين جميع المناضلين كيفما كانت مرتبتهم في المسؤولية و يجعل كذلك .من كل مناضل مسؤولا ومطالبا بالحفاظ على أهداف الثورة بالحفاظ على النظام نفسه ويجعله من جهة أخرى عضوا نشيطا لنشر أفكار

ودعاية جبهة التحرير الوطني و لقد تعزز هذا التنظيم في المـــــدن حيث لا يمكن القيام بالنشاط النضالي إلا في السرية التامة ، كمـــا أن هذا التنظيم قد تطور نوعا ما في الأرياف و في البادية وفي الجبال وأصبح تنظيما تأطيريا إداريا واجتماعيا يقوم فيه المحافظ السياسي بدور أساسي في الدعاية والإعلام.

2 ـ القاعدة الإيديولوجية لهذه الدعاية هي الإيديولوجية الوطنية : وهنا أشير إلى أنّ الكثير من الذين كتبوا عن الثورة الجزائرية يعيبون عليها خلوها من قاعدة إيديولوجية وهذا خطأ، والحقيقة أنّ هؤلاء يعيبون على الثورة عدم انحيازها إلى إحدى الإيديولوجيتين السائدتين في ذلك الوقت، وهما الماركسية والرأسمالية، ونحن نعلم أنّ الثورة الجزائرية لعبت دورا كبيرا في منظمة عدم الانحياز وقد شاركت مبكرا في اجتماع بريوني ومؤتمر باندونغ.

والقاعدة الإيديولوجية لجبهة التحرير الوطني هي كذلك إرث أخذته من حزب الشعب ومن نجم شمال إفريقيا، والتاريخ يشهد أنّ حزب الشعب هو الذّي نادى بوجود الأمة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي وباستمرار هذا الوجود وإن كانت الجزائر قد فقدت سيادتها وقد قام هذا الحزب بجهد كبير لنشر هذه الفكرة وجمع كلمة الشعب حول المطالبة بها، وقد عبّر الشعب مرارا قبل 1954 وأثناء الانتخابات المختلفة التي أجريت

عن تمسكه بهذه الفكرة وفي الفاتح نوفمبر 1954 عند اندلاع الثورة حسمت جبهة التحرير الوطني النقاش حول هذه الفكرة بين الأحزاب المختلفة وقالت بكل صراحة وحزم أنّ الأمة الجزائرية حقيقة ملموسة وأنّ المشكل ينحصر في الاعتداء الذي وقع عليها في 1830 والذي يجب اليوم الرد عليه بنفس العنف الذي استعمل ضدها لتسترجع سيادتها.

والكثير يتشكك في كون الوطنية يمكن اعتبارها إيديولوجية والبعض يقول هل هذا النوع من الإيديولوجية يكفي والحقيقة أنّ التاريخ يجيبنا عن هذا. لننظر حولنا فالقرن التاسع عشر والقرن العشرين مليئان بالأمثلة الدامغة سواء في أوروبا أو في القارات الأخرى.

ومن جهة أخرى يمكننا أن نتساءل عن نوعية هذه الوطنية. فرضا مالك يرى "أنّ جبهة التحرير الوطني لم تبن نشاطها على خلفية أيديولوجية ولكن تطور الكفاح هو الذي جعل الوعي الوطني يتحول إلى وعي ثوري ويتعمق الشعور الوطني باهتمامه بالمعيار الاجتماعي". فرضا مالك يفرق في كلامه هذا بين الوعي الوطني والوعي الثوري والحقيقة أنه ليس هناك فرق بينهما فالوعي الوطني التحرري هو في حد ذاته وعي ثوري لأنه يرمي أساسا إلى تغيير نظام سياسي قائم وهو الاستعمار بنظام سياسي جديد هو استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة وجميع مناضلي

جبهة التحرير كانوا يشعرون بأنهم وطنيوّن ثـــوريون منذ فاتح نوفمبر 1954 .

والوطنية إيديولوجية قائمة تكتفي بذاتها وبالأخص عندما تكون تحررية يعني تواجه من يريد القضاء عليها .

وجبهة التحرير الوطني كانت لها هذه الإيديولوجية والدعـــاية التي تقوم بها تنحصر في هذا الإطار وتلتزم به وهي خاصية أساسية في تعريف الدعاية الوطنية التحررية .

3 - **هي دعاية براغماتية واقعية :**

والمعروف أن الهدف الذي ترمي إليه الثورة هو الاستقلال وهذا الهدف كان يعتبر قبل 1954 وفي الأشهر الأولى من الثورة ضربا من الخيال والحلم الذي لا يمكن تحقيقه ولقد تعمق هذا الاعتقاد قبيل الثورة عندما ظهرت الأزمة التي أدت إلى انقسام حزب الشعب وقد يعتبر كوسيلة ضرورية للتحرر.

وعندما انفجرت الثورة في فاتح نوفمبر 1954 نظر إليها الكثير كعملية انتحارية لا يمكن أن تنجح غير أن الذين قاموا بـــهذه الثورة كانوا يعتقدون أن ما قاموا به هي الوسيلة الوحيدة الناجعة وقد قـــال العربي بن مهيدي رّحمة الله عليه "*القوا بالثورة في الشارع فإن*

الشعب يتبناها " هؤلاء الثوار كانوا يؤمنون بان العمل l'action هو الذي يجعل المســيرة التحررية تنطلق والعمل والنشاط الثوري هو الذي يثبت ويرسي هذه الثورة والاستمرار في العمل والنشاط الثوري هو الذي يكــفل بالنّجاح.

وبهذه الكيفية يتجلى لنا الطابع البراغماتي والواقعي للثورة، وهذا الطابع هو الذي تشبعت منه دعاية جبهة التحرير الوطــني، فهي لم تلجأ وراءِ الشعارات فالثورة لم تعرف الشعارات إلا نادرا فمناضل جبهة التحرير الوطني لا يكثر في الكلام بل هو يعمل وينشط وبعد ذلك يشرح وعندما يشتد الأمر فهو يسكت..

ولقد عيب علي جبهة التحرير أنها متصلبة dogmatique وإنها تبالغ في تمسكها بالاستقلال ولقد اشتدت الضغوطات الخارجية عليها لكي تتخلى عن هذا الموقف المتشدد، والحقيقة أنّ هذا التصلب نابع من نظرتها الواقعية البراغماتية، فالاستعمار الفرنسي أقوى من الحكومات الفرنسية وهو يرفض دائما وجود الأمة الجزائرية وسيادتها، فكل تفاوض بدون هذا الشرط هو خضوع لهذا الاستعمار وهذا هو الواقع وهذه هي التجربة التي لم ترض جبهة التحرير الوطني أن تتخلى عنها رغم هذه الضغوطات.

4- هي دعاية تعتمد على وسائل ضعيفة وفقيرة: إننا نعلم أنّ الثورة بدأت في عدة أماكن من الوطن بعملية عسكرية بسيطة من جهة وتوزيع منشور تعلن فيه جبهة التحرير الوطني عن ميلادها وعن بداية الثورة.

وانطلاقا من هذا بدأ العمل الدعائي بالاتصال الشخصي الذي يقوم به المناضلون، فطبيعة العمل السري وقلة تواجد المناضلين في كل مكان وفي كل جهة من التراب الوطني كاد أن يكون عرقلة كبيرة للنشاط الدعائي فكانت وسائله إذا ضعيفة بالمقارنة مع الهدف الذي كان يرمي إليه فحتى سنة 1956 لم تتمكن جبهة التحرير الوطني من استعمال الوسائل الإعلامية مكتفية فقط كما ذكرت بالمناشير والاتصال الشخصي.

وفي الحقيقة فإنّ جبهة التحرير الوطني استطاعت أن تتغلب على هذا الضعف بقدرتها التنظيمية ففي الأشهر الأولى تمكنت من تأسيس خلايا في جميع القرى والمدن وفي جميع الأحياء وفي جميع الجهات من الوطن، وتمكن من جهة أخرى جيش التحرير الوطني أن يكثر من العمليات وأن يبرهن على قدرته وصموده وإرادته الفعالة وكان هذا التواجد وهذا النشاط برهانا على قوة جبهة التحرير الوطني وعلى قدرتها في التأثير على الرأي العام وهذه القدرة هي التي عوضت ضعف الوسائل وأصبحت أفكار ومواقف جبهة التحرير الوطني تنتشر بكل سهولة.

ويمكن القول أنّ السياسة الاستعمارية العمياء قد لعبت دورا كذلك فبتمسكها بالشعارات الكاذبة والتي أفنى عليها الدهر وفرت لدعاية جبهة التحرير الوطني سندا موضوعيا استعملته الثورة لفائدهّا كما يشهد بذلك الدور الذي قامت به الصحافة الاستعمارية في بداية الثورة.

5. الدعاية توجهت إلى جمهور متنوع :

وتكيفت حسب نوع هذا الجمهور فهناك أربعة أنواع من الجماهير:

1- الشعب الجزائري و الثورة كانت تقصده بالدرجة الأولى وقد عرفت كيف تتوجه إليه .

2- ثم هناك الحكومة الفرنسية القائمة في فرنسا بتغيراهّا المتعـــــددة و باتجاهاهّا المختلفة .

3- وهناك الرأي العام العالمي الذي كان يعير الاعتـــــبار لفرنسا و يساندها لأنها دولة عظمى

4- و هناك في الأخير الرأي العام الفرنسي الاســـــتعماري بالجزائر وهو المتطرف قد نصّب نفسه عدوا للثورة .

فهذه الجماهير المختلفة تكيفت معها الدعاية وعرفـــــت كيف تستميلها ما عدا المتطرفين و هذه القدرة منبثقة من الواقعية التي كانت تسلكها جبهة التحرير الوطني .

فانطلاقا من الإرث الذي أخذته من حزب الشعب من الناحية التنظيمية وانطلاقا من القاعدة الاديولوجية الوطنية التحريرية فقد اتصفت بالبراغماتية والواقعية رغم الوسائل الضعيفة التي استعملتها ورغم تنوع الجماهير المتجه إليها.

وقد يبقى هذا التحليل يحمل طابعا نظريا لا يكفي لإعطاء تفسير مقنعا لنجاح دعاية جبهة التحرير الوطني ولذا يجب علينا أن نر دفه بتحليل ميداني يجسد هذه النظرية .

فبيان فاتح نوفمبر قد حدد للثورة – زيادة على الهدف الأساسي الذي هو الاستقلال- ثلاثة أهداف ثانوية هي :

1- تجنيد الشعب الجزائري

2- تدويل القضيية الجزائرية .

3- فتح مفاوضات مع التسلطة الفرنسية

فالهدف الأول يكوّن المرحلة الاولى من الثورة و قد امتدت هذه المرحلة من 1955 إلى 1956 تقريبا و قد وجهت دعاية جبهة التحرير الوطني جهودا لإقناع جميع فئات الشعب الجزائري بالالتفاف حول جبهة التحرير الوطني وقد اتسمت هذه المرحلة بانضمام الاتحاد العام للطلبة الجزائريين إلى جبهة التحرير الوطني.

والهدف الثاني يكون المرحلة الثانية من الثورة، وقد امتدت هذه المرحلة حتى سنة 1959 تقريبا وقد وجهت دعاية جبهة التحرير الوطني جهودها لإقناع عدد ممكن من دول العالم لمساندة الثورة الجزائرية وقد تم بالاعتراف بالحكومة المؤقتة.

والهدف الثالث يكون المرحلة الثالثة من الثورة الجزائرية وقد امتـــدت من 1960 إلى 1962 وقد بذلت الجهود في هذه المرحلة لإقناع ديغـــول بأنّ المفاوض الوحيد هو جبهة التحرير الوطني.

هذا هو باختصار شديد التحليل الميداني وقد يكثر فيه الكلام وفيه حالات وأمثلة تبرز فيها بوضوح الخصائص الخمسة لدعاية جبهة التحرير الوطني والتي قد ذكرتها من قبل.

3 ـ أفضلية الداخل على الخارج *

مما لا شك فيه أنّ الاحتفال بالعشرين من شهر أوت هو مناسبة سعيدة للتعمق في مفهوم ثورتنا المباركة ولاكتشاف أسرارها وأبعادها ودراستها بصفة موضوعية وشاملة بقدر الإمكان.

وفي حديثي أريد أن أتعرض بالتحليل والشرح لبعض مكونات الحدث ونحن نعلم أنّ 20 أوت 1956 انعقد فيه مؤتمر الصومام وأنّ هذا المؤتمر تمخض عن وثيقة هي ميثاق الصومام. ونحن نعلم كذلك أنّ ميثاق الصومام هو شرح موضح لبيان فاتح نوفمبر وهو قد حدد فلسفة الثورة وأهدافها وبيّن خطتها واستراتيجيتها، نعم ! ولكنني أريد اليوم أن آخذ نقطة واحدة من هذا الميثاق بالتحليل والشرح.

وهذه النقطة هي قضية "الأفضلية للداخل على الخارج".

وبالفعل لقد ورد في ميثاق الصومام بعض المبادئ الأساسية التي نعرفها اليوم وهي على الأخص : أفضلية الداخل على الخارج - القيادة الجماعية. أفضلية الجانب السياسي على العسكري، والسؤال الذي يبادرنا هو لماذا

---

* مداخلة في الاحتفال بذكرى 20 أوت، مقام الشهيد، الجزائر، 20 أوت 1997.

الإشارة والتأكيد على هذه النقطة : أفضلية الداخل على الخارج وهي قضية بديهية طبيعية لا جدال فيها علما بأنّ الثورة لا يمكن أن تكون إلاّ في داخل البلاد وأنّ نجاحها ونجاعتها لا يمكن أن تكون إلاّ بتسييرها من الداخل وتاريخ الثورات في العالم يشهد بذلك ؟ إذا لماذا هذا الطرح في هذه الفترة بالذات (20 أوت 1956) وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف أولا السبب أو الأسباب التي أدّت إلى التأكيد على هذه النقطة وثانيا أن نعرف نتيجة هذا المبدأ ومدى تطبيقه.

أولا فيما يخص الأسباب فهي نوعان :

فالنوع الأوّل هو موقف السلطات الفرنسية من الثورة في بدايتها إذ المعروف أنّ السلطات الفرنسية سواء في الجزائر أو على مستوى الحكومة في باريس قد فاجأتها الثورة، فهي لم تكن تتوقعها وبالتالي فقد كانت تجهل تماما من كان وراء الثورة، فاتجهت غباوة إلى اعتقال قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية ظنا منها أنّ لهم صلة بهذه الأحداث ثم سرعان ما ركزت دعايتها على أنّ الشعب لا عداوة له مع فرنسا وأنّ مدبري الأحداث هو الخارج وبالتحديد مصر وقائدها عبد الناصر، وقد قامت بحملة دعائية واسعة ديبلوماسيا وإعلاميا حول هذا الادعاء حتى أصبحت جميع الأوساط السياسية في فرنسا بما فيها اليسار الفرنسي تؤمن بهذا وتعتقد أنّه حقيقة مما أدى بها إلى القيام بالاعتداء الثلاثي على مصر في أكتوبر 1956 م.

والغريب في هذا هو أنّ هذه الدعاية قد أثرت نوعا ما على الخارج وأصبح البعض -جزائريين وعرب- في الخارج يعتقدون أنّ لمصر دورا هاما وأساسيا في تسيير الثورة وهو النوع الثاني من الأسباب.

والمعروف أنّه كان يوجد في مصر في بداية الثورة مجموعة من المناضلين الثوريين، وخصوصا بن بلة وخيضر وآيت أحمد، ومما تذكره بعض الشهادات أنّ هؤلاء المناضلين وجدوا نوعا من الصعوبات للاتصال بالسلطات المصرية في الأشهر الأولى من الثورة ولكن مع مرور الأيام وتكثف الحملة الدعائية الفرنسية نشأت علاقة متزايدة بين عبد الناصر وبن بلة وأصبح الاثنان يعملان بصفة مقربة أو قل بمعزل عن غيرهم. ما هي نوعية هذه العلاقة ؟ وما هو هدفها سواء من طرف بن بلة أو من طرف عبد الناصر ؟ رغم ما كتب حول هذا الموضوع فإنني لا أستطيع الإجابة عنه ولكنني أذكر شيئين يوضحان نوعا ما هذا الجانب.

الأمر الأوّل هو ما وقع للعربي بن مهيدي رحمه الله عندما ذهب إلى مصر في أواخر سنة 1955 ليسأل الإخوان المناضلين هناك لماذا لم يقوموا بمهمتهم الأساسية وهي تزويد الثورة بالسلاح، ولقد ذكر لي بعض من الإخوان أنّ اللقاء بين بن مهيدي وبن بلة كان مضطربا وأنّ بن مهيدي رجع من القاهرة بانطباع سيئ جدا من بن بلة ومن المصريين وأنّ أصل الخلاف بين المناضلين في الخارج والمناضلين في الداخل يرجع إلى هذا اللقاء وأنّ العربي بن مهيدي هو

الذي بادر بإثبات هذه الأفضلية في ميثاق الصومام وأيده في ذلك الإخوان في المؤتمر وهم كلهم كانوا حذرين من تظافر الجهود الفرنسية والمصرية لإظهار بن بلة كزعيم للثورة.

الأمر الثاني هو موقف بن بلة وخيضر وآيت أحمد وبوضياف من مؤتمر الصومام سواء في مرحلته التحضيرية أو فيما جاء به الميثاق والمعروف أنّه في المرحلة التحضيرية قد وافق الوفد الخارجي على إقامة المؤتمر وأنّه كان يستعد لحضوره وأنّه انتقل من القاهرة إلى إيطاليا ثم إلى ليبيا في انتظار وصول من يرافقه إلى الجزائر ولكن لم يتم ذلك وبقي السبب مجهولا إلى يومنا، وربما قد يجد باحث جانبا من هذا السبب في الخلاف الذي أشرت إليه سابقا، يعني الخلاف الذي نشأ بين بن مهيدي وبن بلة وغالب الظن أنّ جماعة الداخل لم تكن ترى أية فائدة في حضور الوفد الخارجي إلى المؤتمر.

ومما يؤكد هذا موقف أفراد الوفد الخارجي من مضمون ميثاق الصومام فإنّ بن بلة يرفضه، وحسب ما جاء في الوثيقة رقم *34* التي نشرها محمد حربي، وهي رسالة وجدها السلطات الفرنسية عند بن بلة في محفظته عند اختطاف الطائرة التي كانت تقله إلى تونس مع رفقائه، فإنّ بن بلة يرى "*أنّ القرارات -قرارات ميثاق الصومام- مثيرة للجدل ومن الخطورة بمكان القيام بنشرها*"، وهذه الرسالة كانت موجهة إلى قادة جبهة التحرير الوطني في الداخل، ونحن نعلم أنّ بن بلة لم يكتف بهذه الرسالة بل قام بالاتصالات مع

قادة الولاية الأولى لتحريضهم على عدم الطاعة لقـــرارات مـــؤتمر الصـــومام وكلّف الأخ محساس للقيام بنوع من المعارضة لهذه القرارات وبتنسيق هـــذه المعارضة في تونس، وكل هذا كان يتم في نوع من السرية.

أمّا موقف خيضر فيبدو أنّه كان مؤكدا لموقف بن بلة وليست هناك إشارة صريحة فيما يخص هذا الموقف، وقد عثرت في الوثائق التي كان يحتفظ بها الأخ عبد القادر شانق ريحه -رحمه الله- تركها له بوضياف قبل اعتقاله في الطائرة المختطفة عثرت على رسالة مكتوبة باللغة الفرنسية بعثها خيضر من القـــاهرة إلى بوضياف في تطوان يبدي فيها معارضته لمؤتمر الصومام واســـتنتجت مـــن قراءتي السريعة للرسالة أنّ هناك تقاربا بين خيضر وبوضياف في موقفهما من المؤتمر، وهو التحفظ القوي من القرارات وبالأخص بمبدأ أسبقية الداخل على الخارج، غير أنّه ليس لدينا ما يثبت ذلك بصفة صريحة مثل ما هـــو الشـــأن بالنسبة لموقف بن بلة.

هنا يطرح سؤال آخر قليلا ما وجدت الإجابة عنه بصفة واضحة، وهو ما منع بوضياف من الحضور إلى المؤتمر، فقد كان موجودا بشـــمال المغـــرب. وكانت لديه الوسائل التي تمكنه من الوصول إلى الداخل ولكنه لم يفعل ذلك ألأنّه لم يشعر بتاريخ ومكان المؤتمر ؟ أو لأنّه كان مريضا وتعذر عليه بالتـــالي الدخول إلى الجزائر كما ذكر لي الكثير من الإخوان المناضلين ؟ أم لأنّه كـــان

يرفض المشاركة في المؤتمر لأنّه لا يوافق على القرارات ؟ هذه الأسئلة تطـرح بإلحاح و لم أجد الإجابة حتى فيما كتبه بوضياف.

ومن جهة أخرى ليس لدينا ما يدلنا على موقف آيت أحمد مـن المـؤتمر ليست لدي أي قرينة في هذا الباب اللهم إلاّ ما شاع عن علاقته السيئة مع بن بلة قبل وبعد وجودهما في السجن في باريس.

ومهما يكن فإنّ المواقف المتباينة تظهر أنّ الخلاف كان شديدا بين بن بلة والمجموعة في الداخل وأنّ مجموعة الخارج كانت متضامنة في موقفها ضد مبدأ أسبقية الداخل على الخارج ولعل هذا هو السبب الذي جعل مجموعة الداخل تعمل على إبعاد مجموعة الخارج من الحضور إلى المؤتمر وربما قد يتبين لنا ذلك من خلال ما نتج عن هذا القرار.

فالنتائج نوعان : هناك نتائج إيجابية منها أنّ هذا القرار والمؤتمر بصفة عامة قد أعطى للثورة الجزائرية قيادة جماعية موحدة ومركزية انطلاقا من المؤتمر حتى اتفاقيات إيفيان وأنّ هذه القيادة أصبحت معروفة لدى الجميع وهـي الـتي تتحكم في مصير الثورة خصوصا بالنسبة لفرنسا وللدول الأخرى وبـالأخص الدول المجاورة، وهناك نتائج إيجابية أخرى من حيث التوجيه السياسي ومـن حيث التنظيم العسكري والمدني.

وهناك نتائج سلبية تؤكد نوعا ما الأطروحة التي ذكرتها سابقا منـــها أنّ الخلاف بين الداخل والخارج قد أدى أولا إلى تفكك قيادة الولاية الأولى وقد عانت هذه الولاية من هذا الخلاف لأنّها أصبحت نظرا لموقعها الجغرافي محـــل ضغط من الطرفين خصوصا وأنّ هذه الولاية قد فقـــدت قائـــدها التـــاريخي مصطفى بن بولعيد رحمه الله قبيل انعقاد مؤتمر الصومام مما جعل هذه الولايـــة تعرف نوعا من الاضطراب ولكنه لم يتعد في الحقيقة المستوى القيادي.

وقد نتج عن هذا الخلاف من جهة أخرى تعمقه بحيث تسرعت المجموعة في الخارج إلى اتخاذ مبادرة كان من شأنها أن تؤدي إلى انقسام الثورة وتفكك قيادتها وأقصد بهذا اجتماع تونس بين بورقيبة ومحمد الخـــامس وكـــان مـــن المفروض أن يحضر الإخوة الخمسة الذين اختطفوا في الطائرة ونحن نعلـــم أنّ القيادة المنبثقة من مؤتمر الصومام كانت متحفظة ومتخوفة من هذا الاجتماع ولم تطمئن إلا عندما لم يتم باختطاف الطائرة، وقد عبر عن هـــذا الموقـــف منشور لجبهة التحرير الوطني وزع بمدينة الجزائر غداة اختطاف الطائرة، ولعل هذا الاختطاف وإن كان مؤلما قد وضع حدا لهذا الخلاف الذي بدأ يتفـــاقم وقد عزز اختطاف الطائرة موقف الداخل بدون أن تشعر بـــذلك الســـلطات الاستعمارية. ومن جهة أخرى فإنّ تطور حوادث الثورة قد جعـــل مبـــدأ الأفضلية غير مطبق بعد خروج القيادة من الداخل ومهما يكن فنحن عنـــدما نذكر هذا الخلاف ونذكر الأسماء التي تسببت فيه فإننا لا نريد أن يفهم البعض

أننا نريد أن نسيء إليها و ننقص من دورها ومن قيمتها، بل بالعكس فإننا نريد أن نؤكد فقط على أنّ هذا الخلاف قد يقع وأنّ وقوعه لا يتضمن أية غرابة ما دمنا كلّنا بشرا وما دمنا بالتالي عرضة للاختلاف، ولعل ما أريد أن أؤكده في هذه القضية هو أنّ جميع الإخوان الذين ذكرتهم قد تصرفوا بتعقل كبير في هذا الخلاف فهم كلهم كانوا يتورعون من المساس بسمعة الثورة فقد كانوا يدافعون عن مواقفهم إلى حدود مصلحة الثورة، وعندما يشعرون بهذه الحدود ينسحبون لتبقى الثورة ولتستمر في مسيرتها ولعل أحسن دليل على ذلك موقف محساس بعد مواجهته مع أعمران في تونس فقد فضل الانسحاب والخروج من تونس لترجع الأمور إلى مجراها في تونس وفي الولاية الأولى.

فإنني أعتقد أنّ هؤلاء الإخوان كلهم عظماء لأنّهم عرفوا كيف يجعلون مصلحة الثورة ومصلحة الجزائر فوق حساسيتهم الشخصية ولعل نوع هؤلاء المناضلين ووجوده في جميع مراحل الثورة هو الذي جعل الثورة تنجح وتحقق هدفها. أشكركم والسلام عليكم.

4 ـ كتابة تاريخ الثورة *

تسأل " **الصحافة** " ما هي الأسباب الحقيقية في نظركم التي تحول إلى حد الآن دون كتابة تاريخ الثورة ؟

يبدو من سؤالكم هذا نوع من التشاؤم لا أشاطره وسوف أشرح لكم موقفي ونظري لهذه القضية من خلال الملاحظات التالية :

1 - أريد أن نتفق على تحديد ما هو التاريخ ؟ وحسب ما اطلعت عليه فإنّ جميع العلماء وخصوصا المؤرخين منهم قديما أو حديثا متفقون بصفة إجمالية على أنّ التاريخ هو "ذكر الأحداث التي وقعت في الماضي" ونكتفي بهذا التعريف في هذه العجالة ملاحظين فقط أنّ كلمتي "ذكر" و"كتابة" لا تختلفان معنى في هذا الباب.

2 - انطلاقا من هذا التعريف نطرح سؤالا أخر وهو "ما هي الثورة الجزائرية" ونجيب في الحين "هي سلسلة من الأحداث وقعت في الجزائر بين

* استجواب مع جريدة "الصحافة" - الجزائر، ديسمبر 1999.

فاتح نوفمبر 1954 (وهو بداية الثورة) والخامس من شهر يوليو 1962 (وهو تاريخ الاستقلال)".

وهذه السلسلة من الأحداث تشمل "المعارك" العسكرية والأحداث السياسية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويمكن أن نلخص هذه الأحداث في بعض الأحداث الكبرى التي جاءت أو وقعت كنتيجة حتمية لعدة أحداث أخرى صغيرة نسبيا ولكنها ممهدة لهذه النتيجة، وهذه الأحداث الكبرى هي : العمليات العسكرية التي وقعت في فاتح نوفمبر -بيان فاتح نوفمبر- العمليات العسكرية التي وقعت في 20 أوت 1955 -مؤتمر الصومام في أوت 1956- العمليات العسكرية التي وقعت في 1957 و 1956 - تكوين الحكومة الجزائرية في سبتمبر 1958- إفشال العمليات العسكرية الفرنسية التي وقعت في سنة 1958-1960 -العمليات العسكرية التي وقعت في سنة 1959 في فرنسا -المظاهرات الشعبية التي وقعت في سنة 1960 - تدويل القضية الجزائرية ومناقشتها في الأمم المتحدة- المفاوضات مع ديغول - اتفاقيات إفيان.

هذه هي الأحداث الكبرى التي وقعت ما بين 1954 و 1962 وقد لا يتفق البعض معي في تعداد هذه الأحداث زيادة أو نقصانا ولكن هذا لا يهم ما دام أنّ هذه الأحداث وقعت بالفعل وليس هناك أحد ينكرها.

وجوابي لسؤالكم الكريم هو هل هذه الأحداث التي ذكرتها معروفة عند الجميع ؟ وهل يتكلم عنها العام والخاص ؟ وهل صدرت في حقها كتابات من خلال الصحافة والنشر والندوات والمحاضرات ؟ الجواب نعم إذا أقول "تاريخ الثورة الجزائرية مسجل ومكتوب" أخي الكريم إنّ الثورة الجزائرية حدث تاريخي عظيم وهو حدث عالمي مميز في القرن العشرين تأثر وأثر على الأحداث التي وقعت في هذا القرن.

3 - وفي هذا الصدد أريد أن اشكر وزارة المجاهدين وخاصة معالي الوزير السيد عبادو الذي يحضر شخصيا جميع الاحتفالات بذكرى هذه الأحداث التي ذكرتها وغيرها وهي كثيرة وهذه الاحتفالات هي مناسبات متعددة لتجديد الرؤيا أو للإدلاء ببعض الشهادات أو الوثائق التي تثرى دائما الموضوع وتعطي له دفعا جديدا وهذا النشاط هو هام ومفيد ويكون ذخيرة وكنزا يساعد المؤرخ بصفة جيدة على مواصلة البحث وتجديده.

4 - يجب أن نفرق بين كتابة التاريخ وبين هذا النشاط كما أنّه يجب أن نفرق بين كتابة التاريخ وما ينشر من شهادات ومذكرات كيفما كانت هذه المذكرات وهذه الشهادات سيئة أو جيدة لأنّها لا تعبر إلاّ على موقف أصحابها ويغلب عليها حينئذ الشعور الذاتي وتبتعد بالتالي عن الموضوعية والنزاهة والحياد وهي الخصال التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ.

5 - كتابة التاريخ لا يمكن أن تكون رسمية لأنّ الأشياء الرسمية [illegible] الطابع الذاتي هي كذلك وهي مثل الشهادات والمذكرات.

6 - كتابة التاريخ تتجدد باستمرار نظرا للاكتشافات الجديدة الخاصة بالوثائق ونظرا كذلك لاجتهادات المؤرخين الخاصة بالشرح والتأويل المتجدد الذي يعطونه للأحداث دون المساس بهذه الأحداث التي لا يمكن تغييرها ولا تحويلها.

7 - أنا أخي الكريم متفائل ولا أخشى شيئا عن كتابة تاريخ الثورة والشيء الذي أخشاه هو التشاؤم الذي يتغنى به البعض لأنّه "مودا" وأحب أن أذكر هؤلاء بأبيات من الشعر لإيليا أبو ماضي وهي :

أنّ شر الحياة في الأرضَ نفس　　　تتوقى قبل الرحيل الرحيلا

وترى الشوك في الورد وتعمى　　　أن ترى فوقه الندى إكليلا

هو عبء على الحياة ثقيل　　　من يظن الحياة عبئا ثقيلا

والذي نفسه بغير جمال　　　لا يرى في الوجود شيئا جميلا

*****

الفصل الخامس

الديموقراطية في الجزائر

1 ـ ما هي الديمقراطية التي نريدها

السؤال الذي أطرحه بدوري بعد زملائي الذين سبقوني هو جدوى هذه الإشكالية لندوتنا التي برمجت قبل استفتاء 23 فبراير 1989 حول الدستور الجديد ؟ *

أعتقد أنّ الإشكالية ما زالت مطروحة ولكن من حيث النوع فقط، لأنّ الدستور الجديد يقر الديمقراطية العامة، فالنقاش إذا يجب أن يدور حول النوعية من الديموقراطية التي وضعها الدستور.

ولهذا فإنني أتناول الموضوع من ثلاث زوايا :

أولا : ما هي الإيجابيات التي نجدها في الدستور الجديد.

ثانيا : التخوفات من الممارسات العقيمة وهي على نوعين :

- الذهنيات المكتسبة بعد الاستقلال
- الذهنيات المتبقية من عهد الاستعمار

* مداخلة في ملتقى نظمته جامعة الجزائر - مارس 1989.

ثالثا : أعطي مثالا عن فهمنا للدين.

1 – الجوانب الإيجابية للدستور الجديد :

ويمكن تلخيص الإيجابيات في خمس نقاط :

* الدستور سمح للشعب أن يمارس سيادته بكل حرية وهو التعريف العلمي للديمقراطية وتكون هذه الممارسة بواسطة الانتخابات وبتعيين نواب يتكلمون باسمه وإن كانت هذه الممارسة موجودة من قبل فهي الآن غير مقيدة مثل ما كانت بوجود أولياء وضعوا على الشعب حضانتهم.

* الحريات الفردية أصبحت حريات مطلقة هي كذلك، وبدون قيد وتعيد الاعتبار للإنسان المواطن من حيث هو شخص حر في مجتمع حر له حقوق وواجبات.

* الدستور الجديد يقر بحرية النشاط السياسي والنشاط النقابي مع تنوعها واختلاف الآراء والمذاهب وهذه التعددية هي القاعدة الأساسية لكل ديمقراطية حقيقية.

* الدستور يقرّ كذلك بحرية الصحافة وهذه الحرية شرط أساسي للنشاط السياسي وتعتبر قضية "حجز المكتوب" الذي ينص عليه الدستور كضمان

لممارسة هذه الحرية والدستور ينص على أنّ الحجز لا يمكن أن يقع إلاّ إذا أمرت به المحاكم.

* وجاء في الدستور كذلك فصل السلطات وهو القاعدة الأساسية التي تنبني عليها الديمقراطية وإن كانت صلاحيات رئيس الجمهورية تطغى على صلاحيات السلطتين الأخريين، فإنّ الفصل وارد وهو واضح ولعله يحتاج فيما بعد إلى إصلاحات.

أعتقد أننا نجد في هذه النقاط الخمسة النوع من الديمقراطية التي كنا ننتظرها منذ كفاحنا قبل الثورة وأثناء الثورة، ولكن الدستور ليس هو إلاّ نص والمهم في النص هو تطبيقه وأرى أنّ ممارسة الديمقراطية عندنا تصطدم بالذهنيات المختلفة وهي كما ذكرت على نوعين :

أ – الذهنيات المكتسبة بعد الاستقلال :

تعودنا خصوصا الشباب أن ننظر إلى الحكومة كالبقرة الحلوب كل شيء يأتي من السلطة وفقد كل واحد منا القدرة في القيام بالمبادرة وفقد الشعور بالمسؤولية، يجب أن يتغير هذا الموقف وأن تتبدل الذهنيات والحكومة هي منبثقة من الشعب والشعب هو الذي يراقبها ويحاسبها والشعب معناه هنا أفراده المنظمون في هيئات سياسية وكذلك نوابه.

وهذه العلاقة الجديدة بين السلطة والشعب، فـإنّ الأحـزاب السياسـية بواسطة مناضليها وبواسطة صحفها، هي التي يجب أن تقوم بتبليغها للشـعب وبشرحها شرحا كافيا حتى تتغير الذهنيات القديمة.

إنّ الديمقراطية الحقيقية هي التي تعلم أفرادها أن يكونوا مسـؤولين، لأنّ تغيير الواقع بيدها دون اللجوء إلى العنف ولكن باللجوء إلى الوسـائل الـتي تضعها الديمقراطية بين أيديها مثل الوسائل الإعلامية والانتخابات.

إذا أعتقد أنّ هذه الفترة التي عشناها من الاستقلال إلى اليوم هي عرقلـة كبيرة في طريق تحقيق الديمقراطية. هي عرقلة ولكنه يمكننا أن نتغلب عليهـا بكل سهولة على شرط أن نضعها نصب أعيننا وتجعلها الهيئات السياسية ضمن برامجها إن كانت تحب أن تسود الديمقراطية في هذا البلاد.

ب – الذهنيات المتبقية من عهد الاستعمار :

يوجد اليوم في الجزائر عدد كبير وإن كـانوا لا يمثلـون الأغلبيـة مـن الجزائريين عاشوا في عهد الاستعمار ولم يمارسوا في ذلك الوقت الديمقراطيـة كرجال أحرار في بلد حر مثل ما نحن عليه اليوم.

* في الماضي كنا نستغل الديمقراطية لنحضر الثورة وبالتالي لنحطم الحكم القائم، واكتسبنا بذلك عقلية أكثر ما كانت موجهة لهدم ما هو موجود وهذه العملية لا تتماشى والمرحلة الجديدة التي نحن فيها نحن الآن شركاء في بنـاء

بلادنا سواء كنا في الحكم أو في المعارضة، المعارضة هي كذلك تبني وتحضر للوصول للحكم. هذه الذهنية هي من العراقيل الموضوعية التي تكون خطرا على الديمقراطية.

* إنّ الفترة الاستعمارية قد حطمت القاعدة الأساسية لتكويننا الفكري والروحي، أنا لا أتحدث عن الاختلافات العقائدية والإيديولوجية وبالتالي السياسية التي قد تظهر في المجتمع والتي ترعاها الديمقراطية وتقرها وتحافظ عليها، وهو معنى الديمقراطية، ولكني أتحدث عن التكوين الأساسي المشترك الذي ينمو فيه الطفل ويسهل التفاهم ويدفع إلى التحاور وإن اختلفت الآراء وهذه القاعدة مزقها الوجود الفرنسي وجعلنا في كثير من الأحيان لا نتفاهم وكأننا غرباء على بعضنا البعض، وهذا من مخلفات الفترة الاستعمارية وأعطي مثلا: فهمنا للدين، وهو يمثل النقطة الأخيرة التي أتناولها.

3 – الدين الإسلامي :

ظهر تيار ينادي بأن يكون الإسلام دين الشعب، وأقر الدستور أنّ الإسلام دين الدولة.

ماذا يعني هذا ؟ إنّ الجميع متفق على أنّ الشعب الجزائري مسلم في أغلبيته (الديمقراطية مبنية على الأغلبية).

ولكن الجميع مختلفون في مكانة الدين في الدولة وفي الحكم ولكني أعتقد أنّ الجميع في خطأ.

أنا كديمقراطي أقر بالحق لجزائري أن يبدي رأيه سواء يؤيد الدين أو يعارضه ولكني أطرح بعض التساؤلات التي أرى أنّها تقرب الجزائريين فيما بينهم وتجعلهم يتحاورون ويتجادلون ولا يتنافرون.

1 - أغلبية الشعب الجزائري مسلمة، أليس من الديمقراطية أن نحترم شعور هذه الأغلبية ؟

2 - إنّ فهم المسلم للدين هو فهم كلي يختلف تماما عن فهم الدين في أوربا وعن فهم اللائكيين بصفة عامة.

3 - هل هو من الديمقراطية أن تؤمن الأغلبية بشيء وأن يطبق ما يعاكسه؟

4 - إنّ التسامح ليس معناه أن تفرض الأقلية رأيها ولكن أن تحترم الأغلبية رأي الأقلية.

5 - أعتقد أنّ الديمقراطية الحقيقية هي التي تبين أين هي الأغلبية وأين هي الأقلية ؟

أعتقد أنّ الميدان الذي تتجسد فيه الديمقراطية هو الانتخابات تحضيرها تنظيمها مراقبتها حتى الإدلاء بالنتيجة.

نحن نعرف التجربة التي عشناها في عهد الاستعمار وهي الانتخابات المزورة المعروفة بانتخابات ناجلين"، وهذه التجربة استمرت في الجزائر إلى يومنا هذا وهي مثال واضح لتزييف الديمقراطية وتحويرها.

إنّ الحريات الفردية والعامة ليس لها معنى إذا أفرغت الانتخابات من مصداقيتها.

أنا أعتقد أنّ التجنيد حول هذه النقطة يكتسي أهمية كبرى وهو الشرط الأساسي لنجاح الديمقراطية لأنّ الانتخابات الحرة النزيهة هي التي تجعلنا نعرف اتجاه الشعب الجزائري في أغلبيته، والديمقراطية الحقيقية مبنية على الأغلبية والأقلية واحترام بعضها البعض وقبول تطورهما وتغيير وضعهما.

والسلام عليكم ورحمة الله.

2 ـ الديمقراطية بين المفهوم والممارسة *

في البداية أشكر مدير الجامعة على هذه المبادرة الطيبة التي تريد أن تجمع بين رجال السياسة ورجال العلم حول موضوع يهم الناس جميعا ويرجع بالفائدة الكبرى على الأمة والوطن.

كما أنني أعبر عن سروري بوجودي بين جماعة تضم رجالا برهنوا على كفاءتهم في ميدان السياسة والعلم وأرجو أن أكون عند حسن ظن الجميع.

تدخلي هذا يضم بعض النقاط أعرضها أمامكم :

1 – ليس هناك شك أنّ العلاقة الموجودة بين مفهوم الديمقراطية وممارستها وطيد ومتين ومصيري وبقدر ما يكون المفهوم سليما تكون الممارسة سليمة وإيجابية وبقدر ما يكون المفهوم سيئا ومشوها وغامضا تكون الممارسة سيئة وذات نتائج وخيمة قد تتسبب في إحداث الفتن والفوضى.

* محاضرة ألقيت في ندوة نظمتها جامعة الجزائر، 26 ديسمبر 1990.

ولكن هذا لا يمنع أن تسبق الممارسة بمعنى أن تكون الممارسة واضحة تتبلور شيئا فشيئا حتى يصبح المفهوم معها واضحا يستمد مقوماته من الممارسة الطويلة مثل ما وقع في إنجلترا فإنّ الممارسة الطويلة هناك والتي كانت أحيانا صعبة أدت في النهاية إلى نوع من الوئام والتوفيق بين متناقضات مبدئيا مثل وجود الملكية والديمقراطية ويبقى هذا المثال شاذا في التاريخ ولعله يثبت القاعدة التي ذكرتها سابقا.

2 – إن مفهوم الديمقراطية واضح في حد ذاته فهو مفهوم سياسي محض وهو يعطي السيادة للشعب في اختياراته الأساسية سواء تعلق الأمر بالنشاط أو بالرجال الذين يقومون بهذا النشاط وهذا المفهوم واحد لا يمكن الاختلاف عليه ولكن أشكال تطبيق هذا المفهوم قد تكون متعددة ومختلفة وهنا تلعب الممارسة دورا كبيرا.

3 – أعتقد أنّ هذا المفهوم قديم جدا بدأ يظهر مع تكوين المجتمع البشري لأنّ المجتمع البشري ميال إلى الديمقراطية بالفطرة وأنّ الديكتاتورية أو الملكية أعراض يعثر عليها أحيانا ولهذا لا يمكن أن نقول أنّ الديمقراطية مفهوم غربي يعني أروبي ولا يمكن أن تنسب الديمقراطية إلى جنس من الأجناس قديما أو حديثا فهو ملك للمجتمع البشري يثريه ويغذيه بتجارب عديدة ومتنوعة.

إنّ الدراسات العلمية تتحدث عن تجربة اليونان وعن تجربة الروم وعن التجربة الغربية وتتجاهل التجارب الأخرى التي وقعت من قبل أو من بعد مثل التجربة الإسلامية (وما يهمنا نحن الجزائريين هي تجربتنا كجزائريين وكمسلمين).

إنّ الشورى التي يأمر بها القرآن قد أدت إلى تجربة ديمقراطية أشمل من التجربة اليونانية فخلافا للديمقراطية اليونانية التي تفرق بين أفراد المجتمع وتمنع النساء والعبيد من المشاركة في شؤون المدينة فإنّ الشورى الإسلامية ألغت هذه التفرقة وأعطت الحق لجميع الناس ومن جهة أخرى فإنّ ممارسة الشورى والبيعة في الحضارة الإسلامية أعطت أشكالا متنوعة من الممارسة سواء كانت في فترة الخلفاء الراشدين أو بعدهم وهذه الأشكال أظهرت في الحقيقة حدود هذه الممارسة وسلبياتها.

وما من شك أنّ أوروبا استفادت من هذه التجربة وحاولت أن تتجنب سلبيتها وبذلك أثرت مفهوم الديمقراطية وزودته بثوابت أصبحت لاصقة بها.

إنّه لا يكفي أن نقول أنّ السيادة للشعب أو ننادي بمبدأ الشورى في الميدان السياسي لأنّ الممارسات المختلفة لهذه السيادة أدت في كثير من الأحيان إلى تجريد الشعب من هذه السيادة وإلى إقامة نظام أشبه ما يكون بالديكتاتورية.

ولهذا كان ضروريا أن يوسع مفهوم الديمقراطية وأن تحدد طريقة الممارسة إن السيادة ليس معناها التعبير عنها مرة واحدة أثناء إقامة حكم مثل ما كانت البيعة في التجربة الإسلامية، إنّ التعبير عن السيادة يجب أن يكون في فترات معينة وقصيرة حتى يبقى الشعب هو حقيقة سيد الموقف وهذا التعبير قد لا يكون إجماعا وبالضرورة فإنّه يؤدي إلى ظهور أغلبية وأقلية وإنّ الأغلبية والأقلية قد تنقلب أحيانا وتصبح الأقلية أغلبية ونظرا لهذا التطور فإنّ الأغلبية تصعد للحكم الذي تعترف به الأقلية كما أنّ الأغلبية تحترم الأقلية ولا تضطهدها ولعل هذا النوع من الممارسة هو الذي كان مفقودا بالدرجة الأولى في الديمقراطية القديمة وخصوصا بالنسبة للشورى الإسلامية في فترة الخلفاء الراشدين.

ثم هناك شيء آخر وهو أنّ ممارسة الحكم يجب أن يكون مبنيا على فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فإنّ كل سلطة تكون مستقلة عن غيرها من حيث حدودها واختصاصاتها وفي هذا قد توجد أشكال متنوعة للفصل على شرط أن تكون كل واحدة منها منبثقة من سيادة الشعب ولقد كانت التجربة الإسلامية مبنية على هذا الفصل ولكن في إطار استبدادي ينتهك حرمة الشعب وسيادته ولا يمكن إقامة الديمقراطية والشورى إلاّ باحترام هذا المبدأ الأساسي وهو احترام سيادة الشعب بالنسبة لجميع السلطات وبالأخص السلطة التنفيذية.

ومما لا شك فيه أنّ هذا الإثراء الذي زاد في توسيع مفهوم الديمقراطية قد جاءت به التجربة الغربية، كما أنّ طريقة إبراز الأغلبيـــة والأقليـــة بواســـطة الانتخابات العامة المنظمة في نفس الوقت وتحت مراقبة محددة دقيقة قد جاء بها الغرب أيضا وهي تعطي لمفهوم الديمقراطية مصداقية أكثـــر وفعاليـــة أكـــبر، واستعمال الانتخابات وإجراء التصويت هو أحسن ممارسة لتطـــوير مفهـــوم الديمقراطية وترسيخها عند أفراد الشعب مثل ما نراه في فرنســـا والولايـــات المتحدة على سبيل المثال.

ولنتأمل التجربة الإسلامية في فترة الخلفاء الراشدين وبالأخص في الخصام والنـــزاع الذي ظهر بين عثمان وعلي رضي الله عنهما ولو استعملت طريقة التصويت للفصل في هذا الخصام عوض التحكيم لتجنبت الأمة الإسلامية مـــا وقع من الفتنة والاقتتال وتقسيم المسلمين إلى شيع تتقاتل فيما بينها للوصـــول إلى الحكم.

وبالنسبة للتجربة الجزائرية الحديثة فإنّ ممارسة الانتخابات بصـــفة نزيهـــة واحترام ما ينتج عنها هو وحده الذي يعزز المسار الديمقراطي ويجعله لا يحيـــد عن طريقه ويجنبنا الدخول في متاهات لا تحمد عقباها. وممارسة الانتخابـــات ونزاهتها متوقفة على تغيير الذهنيات التي كانت تتحايل على سيادة الشـــعب بالتزوير واستعمالها لأغراض شخصية أو مسطرة مسبقا. يجب أن نؤمن إيمانـــا صادقا بسيادة الشعب وبرشده وحسن اختياره وكل من الحكومة والأحزاب

يلعب دورا كبيرا وحاسما في تغيير هذه الذهنيات كما أنّ الإعلام يلعب دورا هاما في هذه المرحلة للقيام بممارسة نزيهة للديمقراطية، وبما أنّه سلطة رابعة فمن شروطه أن يتمتع كذلك باستقلالية تامة، وهذا ما لا نلاحظه في الجزائر في هذه المرحلة، فالصحافة المكتوبة وخصوصا اليوميات منها ما زالت تسيطر عليها السلطة التنفيذية، والإذاعة والتلفزيون يخضعون تماما لهذه السلطة والمجلس الأعلى للإعلام يبقى مشلولا كأنّه غير موجود، وهذه ظاهرة لا تخدم المسار الديمقراطي. يجب أن تتغير هذه الظاهرة ويجب أن تعطى للإعلام الجزائري استقلالية حتى يتمكن من القيام بدوره في الانتخابات القادمة.

3 ـ الإعلام والديمقراطية *

في البداية أشكر جامعة الجزائر والمسؤولين على تنظيم هذه السلسلة من المحاضرات وعلى دعوتي للمشاركة بهذه المحاضرة التي أرجو أن لا أخيب من خلالها حسن ظن الجمهور الكريم الذي جاء يشرفني بالاستماع إلي.

وموضوع المحاضرة كما تعلمون هو "الإعلام والديمقراطية" ولقد أصبحت هاتان الكلمتان "الإعلام" و "الديمقراطية" معروفتين لدى العام والخاص، بحيث ليس هناك حاجة إلى التعريف بهما وليس هذا قصدي بل أريد معكم أن نتعرف على العلاقة الموجودة بين الإعلام والديمقراطية، هل الإعلام يؤثر في وجود الديمقراطية وتطويرها ؟ وهل الديمقراطية تؤثر في وجود الإعلام وتطويره ؟ وبمعنى آخر هل وجود الديمقراطية شرط لوجود إعلام حقيقي والعكس كذلك هل وجود الإعلام شرط لوجود ديمقراطية حقيقية ؟. وأنتم ترون أنّ هذه السلسلة من الأسئلة تعطي للموضوع طرحا واسعا يفرض علينا أن نستعين بالتاريخ ولهذا أعرض عليكم النقاط التالية :

* محاضرة في ملتقى نظمته جامعة الجزائر، 28 جانفي 1991.

مفهوم الإعلام ومفهوم الديمقراطية، دور الإعلام في الحضارة القديمة، دور الإعلام في العصر الحاضر، مشاكل الإعلام في الديمقراطية الجزائرية.

I – مفهوم الإعلام ومفهوم الديمقراطية :

1 – فيما يخص الإعلام فإنّ المفهوم العام المتفق عليه يرى أنّ الإعلام هو عملية يتم من خلالها نقل المعلومات ونشرها وانطلاقا من هذا التعريف فإنّه يمكن أن نقول أنّ هذه العملية قد وجدت منذ القديم، منذ آدم إن أردتم، أو منذ تكوين المجتمع البشري، وهي العملية التي يحصل بها العلم ويتم التعارف بين الناس وينطلق منها التطور البشري، ولقد انتظمت هذه العملية وأصبحت تتم بواسطة تنظيم اجتماعي معين أذكر منه بالخصوص العائلة والمدرسة التي هي في الحقيقة وسائل قديمة ما زالت موجودة وجاءت بعدها وسائل جديدة طغت على الوسائل الأخرى وأصبحت تعرف بالوسائل الإعلامية وهي الصحافة والإذاعة والتلفزة والتي نعبر عنها أحيانا بالإعلام، وعلى هذا يجب أن نقول أنّ مفهوم الإعلام يشمل شيئين متلازمين، من جهة عملية نقل المعلومات، ومن جهة أخرى فهي الوسائل العصرية لهذه العملية.

وأريد أن أؤكد هنا أنّ الإعلام بهذا المفهوم ينمي قدرات الفهم عند أفراد المجتمع لأنّه يزودهم بالمعلومات الضرورية.

2 - أمّا فيما يخص الديمقراطية فإنّ المفهوم العام المتفق عليه هو مفهـــوم سياسي يخول للشعب السيادة المطلقة في اختيار من يسير شؤونه وانطلاقا من هذا التعريف فإنّه يمكن أن أبدي ثلاث ملاحظات :

أ - سيادة الشعب تختلف عن السيادة الوطنية لأنّ السيادة الوطنية يمكن أن تكون بدون وجود سيادة الشعب ولكن سيادة الشعب لا يمكن أن تكون إلاّ إذا وجدت السيادة الوطنية وبوجود الشعب توجد الديمقراطية ولذا قلت أنّـــه مفهوم سياسي.

ب - أنّ المشكل في مفهوم الديمقراطية هو عملية "الاختيار" لأنّ الاختيار يفرض أن تكون مشاركة جميع الذين يطلب منهم القيام بعملية الاختيار وأن تكون المشاركة مبنية على وعي تام وعلى علم بجميع مقتضيات هذا الاختيار وهذا يفرض أن يسبق عملية الاختيار عملية نشر المعلومات، وهنا نجد العلاقة المتينة الموجودة بين الديمقراطية والإعلام أو إذا أردتم بين الديمقراطية الحقيقيـــة والإعلام الحقيقي ويصبح الإعلام الحقيقي هنا شرطا في وجـــود الديمقراطيـــة الحقيقة، إنّ الديمقراطية تتغذى بالمعلومات وتتقوى بنشرها.

ج - إنّ هذا المفهوم للديمقراطية هو مفهوم عصري فارتباط الديمقراطيـــة بوجود الإعلام ليس مطلقا وإن كان ضروريا في العصر الحاضر بل قد وجدت

الديمقراطية بدون وسائل الإعلام لأنّ وسائل الإعلام مفهوم عصري في حين أنّ مفهوم الديمقراطية قديم.

ولعله يستحسن هنا أن نشير إلى أنّ الديمقراطية قد عرفتها البشرية منذ العصور القديمة وإن كان المؤرخون الغربيون يحددون تاريخ ظهورها بالحضارة اليونانية القديمة، في حين أنّ الوسائل الإعلامية بدأت تنتشر مع ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي 1450 وهو تاريخ ميلاد الصحافة العصرية، غير أنّ الأسبوعية لم تبدأ بالظهور إلاّ في القرن السابع عشر وأنّ اليومية لم تبدأ بالظهور إلاّ في القرن الثامن عشر الميلادي في الولايات المتحدة سنة 1776 وفي فرنسا سنة 1836، وهذا الإطار التاريخي يجعلنا نستطيع أن ننتقل إلى النقطة الثانية والثالثة وهما دور الإعلام في القديم وفي العصر الحاضر.

II – دور الإعلام في القديم :

في هذا الباب نقصد بالإعلام نقل المعلومات لأنّ الوسائل الإعلامية العصرية لم تكن موجودة، ولكن نقل المعلومات كان يتم في ظروف سهلة في الديمقراطيات القديمة نظرا لطبيعة هذه الديمقراطيات التي هي كما هو معروف محدودة من ناحيتين :

1 – من ناحية الرقعة الترابية التي تتم فيها.

2 – من ناحية العدد من السكان الذين تعنيهم الديمقراطية، ففي اليونان مثلا كانت الديمقراطية تمارس بمدينة أتينا فقط في حين أنّ عدد السكان الذين يعنيهم الأمر كان لا يتجاوز 60.000. وكان الأمر مثل ذلك فيا يخص روما.

أمّا فيما يخص المسلمين وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين فإنّ الديمقراطية أو الشورى كانت تمارس في المدينة وكانت تتم البيعة بين المسلمين الحاضرين في المدينة وبعد ذلك شيئا فشيئا في المناطق الأخرى.

وكان الإعلام يتم في هذه الديمقراطيات بواسطة التجمع والخطب أو بواسطة الاتصال الشخصي، وكانت هذه الوسائل البسيطة كافية لتتم عملية نقل المعلومات وليتم الاختيار ولكن الملاحظ هو أنّ دور الإعلام أساسي في هذه الديمقراطيات وهو شرط ضروري لوجود هذه الديمقراطية وانعدامه يعني تغيير النظام السياسي إلى نظام ديكتاتوري أو نظام ملكي لا يحتاج إلى التجمع ليتم تعيين الملك أو الخليفة.

III – دور الإعلام في أوربا العصرية :

أمّا في أوربا العصرية التي يبدأ تاريخها من أواخر القرن الخامس عشر تقريبا فإنّ دور الإعلام مر على مرحلتين متميزتين :

ففي المرحلة الأولى واكب ظهور الصحافة ظهور الدول الأوربية ذات نظام ملكي أو إمبراطوري وكان الإعلام لا يلعب أي دور سياسي بل كان

خاضعا للنظام السياسي القائم يوجهه ويفرض عليه الرقابة ويقتصر الإعـــلام على نشر المعلومات التي يريدها النظام السياسي.

وفي المرحلة الثانية التي تبدأ مع أواخر القرن الثامن عشـــر تقريبـــا نـــرى الصحافة المكتوبة تتطور وتستعمل في النشاط السياسي وقد تزامن هـــذا مـــع التطور الاقتصادي والفكري وخصوصا مع ظهور المطالبة بحرية التفكير والتعبير التي بدأ يعلن عنها الفلاسفة ورجال الفكر خصوصا في إنجلترا وفرنسا مثـــل ملتون وروسو وفلتير، وبدأت تظهر صحافة معارضة للنظام السياسي تنشـــر أفكار الفلاسفة وتزود قراءها بالمعلومات التي تجعلهم يحكمون علـــى النظـــام الملكي ويطالبون بسيادة الشعب.

ولم تكتف الصحافة بهذا الدور بل أصبحت منبرا ترتفع منه أصوات تدعو إلى القيام ضد النظام الملكي وإلى إشعال فتيل الثورة، وأحسن مثال لهذا هـــو جريدة "**لوناصيونال**" (الوطني) الفرنسي. التي بدأت حملتها ضد النظام الملكـــي الفرنسي سنة 1848 وتحولت شيئا فشيئا حتى أصبحت لسان حـــال لثـــورة 1848 ومقرا رئيسيا لهذه الثورة.

ولقد تقوى هذا الدور فيما بعد عندما اســـتقرت الديمقراطيـــة لتصـــبح الصحافة المدرسة الحقيقية للممارسة الديمقراطية من خلال الصحف المستقلة،

ويشهد التاريخ بالدور الذي قام به بعض الصحفيين الذي كانوا في نفس الوقت رجال فكر وأدب، مثل **زولا** و**بالزاك** في فرنسا وفي إنجلترا كذلك .

IV – دور الإعلام في الجزائر :

مما لا شك فيه أنّ الجزائر المستقلة عرفت المرحلتين اللتين مرت عليهما أوروبا وإننا اليوم ندخل في المرحلة الثانية، ولكن بالنسبة لهذه المرحلة يجب الإدلاء ببعض الملاحظات الأولية :

- دخلنا هذه المرحلة بطريقة تكاد تكون سليمة.
- الوسائل الإعلامية متنوعة، إذاعة وتلفزيون، صحافة مكتوبة.
- الذهنيات القديمة ما زالت موجودة.

نظرا لهذه المعطيات فإنّ دور الإعلام في تعزيز النظام الديمقراطي يكون كبيرا و صعبا في نفس الوقت وهذه الصعوبة طبيعية ولكن يجب تحديدها حتى يمكن التغلب عليها وأريد أن ألخصها في بعض النقاط : 1 – الحق في الإعلام، 2 – العقوبات، 3 – المصلحة العامة.

وهذه النقاط الثلاثة يغمرها كثير من الغموض في قانون الإعلام الحالي وتحتاج إذا إلى التوضيح الكافي حتى لا تظهر الانحرافات والتحليلات التي تؤدي لا محالة إلى معاكسة الديمقراطية وتشويه دور الإعلام، وقد تكون لي فرصة أخرى لأشرح هذا بالتفصيل.

4 ـ التجربة الإعلامية في الجزائر وقانون الإعلام لسنة 1990 *

تتضمن هذه المداخلة تقييما نوعيا لقانون الإعلام الذي صـــدر في ســـنة 1990 وستشمل قسمين مختلفين ومتكاملين :

ففي القسم الأوّل سأتعرض للممارسة الإعلامية في الجزائر، منذ بدايتها إلى سنة 1990 مبرزا الخصائص الأساسية لهذه الممارسة.

وفي القسم الثاني سأتعرض بالتحليل إلى قانون الإعلام لسنة 1990، ومن خلال بعض النقاط التي أراها أساسية.

1 – خصائص بعض الممارسات الإعلامية في الجزائر :

إنّ تطور الإعلام في الجزائر -باستثناء الصحافة الاستعمارية- منذ بدايتها إلى الاستقلال سنة 1962 يبرز لنا بعض الخصائص التي تكشف العيوب التي

---

* الجلسات الوطنية للاتصال -قصر الأمم- الجزائر- 30/29 ديسمبر 1997.

يحملها نظامنا الإعلامي بدون أن نشعر بذلك وهذه الخصائص وإن كانت حسنة نظرا للظروف التي نشأت فيها، إلاّ أنّها أصبحت سيئة في ظروفنا الحالية.

الخصائص التي أريد التركيز عليها هي :

1 - عدم وجود صحافة يومية قبل 1962.

2 - الصحافة الجزائرية -خصوصا الناطقة باللغة العربية- هي صحافة أدبية أكثر منها إعلامية.

3 - الصحافة الجزائرية -خصوصا الناطقة بالفرنسية- هي صحافة سياسية دعائية أكثر منها إعلامية.

هذه الخصائص الثلاثة أريد أن أشرحها باختصار كما يلي :

1 - صحافة دورية :

من المعروف أنّ أوّل جريدة يومية يصدرها الجزائريون -بقطع النظر عن بعض التجارب الظرفية- كانت في سبتمبر 1962 وهي جريدة "الشعب" بالفرنسية، وقبل ذلك كان النشاط الصحفي بالنسبة للجزائريين يقتصر على إصدار الدوريات (أسبوعية، نصف شهرية، شهرية وغيرها...).

وهذا ما أدى إلى عدم التمكن من الممارسة في مجـال نشـر الأخبـار المختصرة والاعتماد خصوصا على المقال المطول وعلى شرح الأحداث حتى ولو كانت في صيغة افتتاحية، وهذا يؤدي بالصحافي إلى إدخال قسم كبير من إنتاجه في صيغة افتتاحية وإدخال ذاتيته بشكل ملحوظ في الأحداث مما يبعده كثيرا عن الموضوعية.

2 - صحافة أدبية :

الخاصية الأدبية تشتمل في الحقيقة كل الصحافة الجزائرية، سواء المكتوبة بالعربية أو المكتوبة بالفرنسية، ولكننا نجدها أكثر في الصحافة المكتوبة بالعربية، وهذا يرجع لعدة أسباب منها :

أولا : وبصفة أساسية موقف السلطات الاستعمارية التي كانت تعتبر الصحافة باللغة العربية صحافة أجنبية، وبالتالي يمكن حجزها أو توقيفها بسهولة وهو الأمر الذي كان يجبر أصحاب الصحف على اجتناب المواضيع السياسية أو المواضيع المحرجة للسلطات الفرنسية، والتركيز على المواضيع الاجتماعية والثقافية في قالب أدبي وروائي.

ثانيا : أنّ اكبر الصحافيين في الجزائر كانوا قبل كل شيء أدباء وشعراء وفقهاء، مثل (عمر راسم، عمر بن قدور الجزائري، محمود كحول، السعيد الزاهري، أبو اليقظان، عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي... الخ)، هذا

ما جعل صحافتنا تتسم أكثر بالطابع الأدبي وتصبح الصحافة في ذاتها نوعـــا أدبيا وتبتعد بذلك عن الطابع الإعلامي، فجريدة البصائر مثلا يعتبرها الكـــثير كمرجع أدبي، لهذا نجد محمد ناصر يقدم لنا أطروحة حول المقـــال الأدبي في الصحافة الجزائرية.

ولست أدري إذا كان البعض الآخر لا ينظر إلى "لا فواد همبل" أو إلى "لا ريبوبليك ألجيريان" كقطعة أدبية باللغة الفرنسية كذلك. إنني أعتقد أنّ هـــذا الطابع الأدبي قد أثّر على أجيال وأجيال من صحافي الجزائر.

3 - صحافة دعائية :

إنّ الصحافة الجزائرية قبل الاستقلال كانت صحافة سياسية قبل كل شيء و لم تكن صحافة إخبارية، فنشاطها الإعلامي هـــو بالدرجـــة الأولى نشـــاط سياسي ودعاية حزبية أو إيديولوجية، سواء بالنسبة لصحف الانـــدماجيين أو صحف الوطنيين.

وجميع الصحف التي ظهرت قبل 1962 تستعمل الأسلوب الدعائي، من تضخيم الأحداث وإهمال البعض منها ومحاولة استمالة القارئ وغير ذلك من الممارسة الدعائية، التي هي كما نعلم تختلف عن الأسلوب الإعلامي الذي هو التعريف بالحدث بكل بساطة.

ومما لا شك فيه أن هذه الخصائص الثلاثة قد طبعت الصحافة الجزائرية وأثرت عليها بصفة كبيرة وقد تدعم هذا الطابع بعد الاستقلال إذ استمرت الصحافة الجزائرية بعد 1962 تتميز بهذه الخصائص رغم وجود الصحف اليومية وأصبحت هذه الصحف اليومية الجديدة التي تقول أنّها إخبارية تستعمل الأسلوب الدعائي وتبتعد عن الأسلوب الإعلامي.

وقد استمر هذا الوضع قرابة ثلاثين سنة، وعندما وضع قانون الإعلام الجديد سنة 1990 لم يأخذ بعين الاعتبار التجربة الجزائرية السابقة و لم يهتم بتمكن الخصائص التي ذكرتها في الممارسة الإعلامية و لم يأخذ من جهة أخرى بالاعتبار الفترة الانتقالية التي أحدثها النظام الديمقراطي الجديد.

وبهذا أكون قد دخلت في القسم الثاني من مداخلتي هذه الخاصة بتقييم قانون الإعلام لسنة 1990، فقانون الإعلام لسنة 1990 يتضمن جوانب إيجابية وجوانب سلبية.

الجانب الإيجابي هو أنّ هذا القانون قد أدخل التعددية في الصحافة المكتوبة وهو مكسب هام، فهناك صحافة خاصة وهناك اتجاهات مختلفة ومتنوعة، تعبر عن تيارات موجودة في المجتمع، وهو تعبير تعددي سوف يساعد على نضج الديمقراطية في البلاد ولا أريد أن أطيل حول الإيجابيات لأنّها قليلة في الحقيقة.

أمّا سلبيات القانون فهي نوعان :

أولا : فالقانون سابق لأوانه.

ثانيا : فبعض المفاهيم الواردة فيه غير واضحة.

1 – فهو سابق لأوانه لأنّه ينطلق من موقف مستقبلي ويتجاهل المرحلة الانتقالية التي بدأت سنة 1988، فخلافا لقانون الإعلام لسنة 1982 الذي جاء ليقنن ويثبّت ممارسة إعلامية (أو دعائية) موجودة، فإنّ قانون الإعلام لسنة 1990 يقنن لحالة ولوضعية لم ندخل فيها بعد.

فهو يتكلم عن الحق في الإعلام في حين أنّ حرية الإعلام غير موجودة والحق في الإعلام هو نوع من الوهم لم تحققه الدول الغربية المتقدمة إلى يومنا هذا، وما زالت الكثير من هذه لم تضع قانونا خاصا بهذا الحق، فهي تكتفي بذكره ضمن الحقوق العامة للإنسان التي ينص عليها في الغالب الدستور بصفة عامة.

فالحق في الإعلام في القانون الجزائري تمييع لحرية الإعلام التي هي شيء يمكن تحقيقه بالممارسة والواقعية في حين أن البنود التي يتضمنها الباب الخاص بالحق في الإعلام نوع من الفلسفة الوهمية البعيدة عن الواقع زيادة على أنّها متناقضة.

وقانون الإعلام لسنة 1990 سابق لأوانه كذلك لأنّه يتكلم عن الأخلاقية والمهنية **Déontologie** عوض أن يتكلم عن مسؤولية الصحافي في الممارسة الإعلامية.

فالمادة 40 من القانون 1990 تقول أنّ الصحافي المحترف ملزم باحترام أخلاقية المهنة بأن يمتنع من النقل **(Plagiat)** والقذف والشتم كما أنّه يجب أن يهتم بالخبر بصفة عامة وموضوعية، ولقد شاهدنا في المرحلة الانتقالية التي نعيشها، كثيرا من هذه الأخطاء التي استمرت، لأنّ قانون 1990 لا يعتبر تجاوزات يعاقب عليها قانونيا ولكنه يكتفي بأن يطلب من الصحافيين بالخصائص التي ذكرها وإذا لم يوضع لها حد قانوني زجري منصوص فإنّ التجاوزات تكثر وربما تصبح قاعدة للممارسة الصحفية.

ولهذا فإنّ الكثير يصفون قانون 1990 بأنّه قانون العقوبات وبالعكس فإنني أرى فيه تقصيرا في هذا الميدان، فهو يتضمن 22 مادة عقوبية موزعة كالتالي :

8 خاصة بالإجراءات الإدارية التي يجب أن تقوم بها الصحافة في إطار حرية الإعلام.

3 خاصة بأمن الدولة.

6 خاصة بالقضاء والإجراءات القضائية

2 خاصة بالمس برؤساء الدول

1 خاص بالأطفال

2 خاصة بالتحريض على الجريمة.

وليست هناك عقوبات خاصة بالتجاوزات المهنية بل أكثر من هذا فإنّ القانون لا يحمي الطفولة مثل ما نجده عند غيرنا، وجميع القوانين الإعلامية تحتوي على مواد خاصة بالعقوبات.

ووجودها أكثر في المرحلة الانتقالية حتى تكون ردعا لكل التجاوزات وتصبح الممارسة الإعلامية تدخل شيئا فشيئا في حالتها العادية والمرحلة الانتقالية تحتاج إلى صرامة قانونية كبيرة تجعل الصحافي يتحمل مسؤوليته أمام المحكمة بكل وعي.

***2*- أمّا السلبية الثانية فهي خاصة ببعض المفاهيم الغامضة التي جاءت في قانون** 1990 ومن بينها أريد أن أؤكد على قضية "المصلحة العمومية" **(Service Public)** التي يصعب تحديدها في الميدان الإعلامي وخاصة بالنسبة للصحافة المكتوبة، فقانون 1990 يثبت الصحافة المكتوبة التابعة للدولة ولا ينظر إليها كظاهرة يمكن إزالتها مع ترسيخ النظام الديمقراطي بل هو يقنن لها ولكنه لا يضع لها إلاّ أربعة مواد مختصرة بحيث أصبح يكتنف تسيير هذا القطاع غموض كبير وفوضى واسعة قد أوقع الصحافة المكتوبة العمومية فيما تتخبط فيه اليوم

وكان من الأجدر أن ننظر إلى ما حولنا وأن نأخذ العبرة بالتجربة الموجودة في البلدان الغربية والتي تتمثل في عدم وجود صحافة مكتوبة عمومية في نظام سياسي ديمقراطي بل هي كلها خاصة ولا تملك الدولة أية صحيفة إخبارية لأنّ النشاط السياسي والتناوب على السلطة يتنافيان مع الإشراف على جريدة بأموال الدولة.

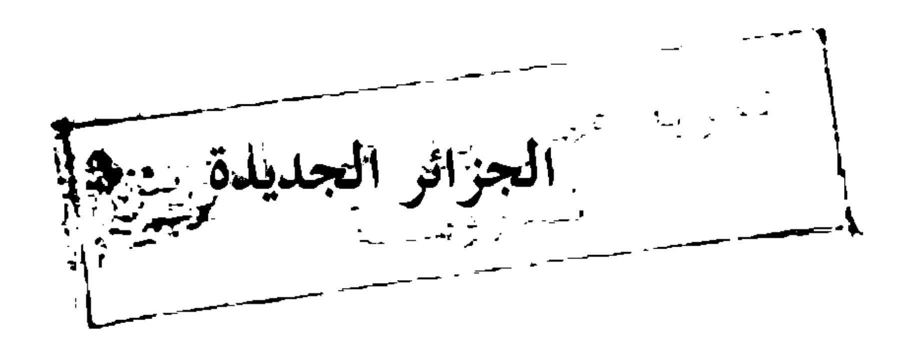
ويعني مفهوم الخدمة العمومية أنّها مصلحة في خدمة جميع المواطنين بما في ذلك الأحزاب السياسية والجمعيات المختلفة وهي بهذا تشبه التلفون والسكة الحديدية لأنّها مصلحة تقوم بالخدمة العمومية ولأنّها وسائل مادية تقنية تسخرها الدولة ليستعملها جميع المواطنين مقابل تعويض مالي يدفع لهذا الغرض، والجريدة الرسمية التي تشرف عليها فعلا الدولة تقوم بخدمة عمومية لأنّها تنشر القوانين العامة التي يحتاج إليها الجميع كيفما كانت اتجاهاتهم السياسية أو الإيديولوجية، أمّا الصحافة المكتوبة الإخبارية فهي تنشر أخبارا ومقالات وتحاليل يقوم بها صحافيون تتغلب فيهم النزاعات الذاتية وتظهر عندهم ميول قد تغضب البعض ولا يمكن التغلب عليها إلاّ بالتعددية والخوصصة وإبعاد الدولة عن هذا الميدان.

ومن خلال هذه الأمثلة القليلة نستطيع أن نقول أن قانون 1990 لم يتلاءم مع المرحلة الانتقالية و لم يمكنها من إطار قانوني يسمح للممارسة الإعلامية أن تتبلور أكثر فأكثر وتبتعد عن الأسلوب الأدبي والدعائي الذي ورثناه من

المراحل السابقة وتقترب أكثر فأكثر من الموضوعية والمسؤولية التي هي الهدف الأسمى للصحافة المكتوبة، ولا ننسى أنّ المهمة الأساسية للإعلام هي تزويد المواطن العادي بالمعلومات الصحيحة الكافية التي تجعله يستطيع أن يبدي رأيه بكل حرية ويقوم بالاجتهاد الشخصي حول القضايا التي تهم المجتمع سواء في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو غيرهما وبذلك يعاد الاعتبار للمواطن وبذلك كذلك تساعد الصحافة على تكوين المواطن.

وفي الختام أريد أن أشير إلى نقطة هامة وهي أنّ النظام الإعلامي مرهون بالنظام السياسي فالنظام الإعلامي تابع للنظام السياسي ومعنى هذا أنّه يستحيل أن يوجد نظام إعلامي يعتمد على حرية الصحافة داخل نظام سياسي غير ديمقراطي، فالنظام السياسي السلطوي يولد بالطبع نظاما إعلاميا سلطويا والنظام السياسي الديمقراطي يولد نظاما إعلاميا ديمقراطيا، وإنني أعتقد أنّ الجزائر اليوم لم تستقر بعد على نظام ديمقراطي مكتمل، فهي في طريق الديمقراطية ولذلك لا يمكننا إلاّ أن نضع نظاما إعلاميا في طريق الديمقراطية كما شرحت ذلك من قبل.

الفهرست


الجزائر الجديدة

مجموعة طلبة دكتوراه لتبادل
الوثائق والمصادر التاريخية
24/04/2019.

مجموعة طلبة دكتوراه لتبادل
الوثائق و المصادر التاريخية
24/04/2019.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية- الجزائر-
2012
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie -
Bp 75 Z.I Réghaïa Tél (021) 84 85 98 / 84 86 11

زهير إحدّادن

شخصيّات ومواقف تاريخيّة

Conception Med ZOUAOUI

ISBN 9961-61-260-4
9 789961 612606